

## سورة النحل

هذه السورة مكية سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة  
منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد .  
وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة .

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما قال في السورة السالفة : « فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّكَ  
أَجْمَعِينَ » كان ذلك تنبيها إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا ،  
ف قيل : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » وأيضا فإن قوله في آخرها : « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ  
الْيَقِينُ » شديد الالتئام بقوله أتى أمر الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزَّلُ  
الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) .

## شرح المفردات

أتى أمر الله : أى قرب ودنا ، ويقال فى مجرى العادة لما يجب وقوعه قد أتى  
وقد وقع ، فيقال لمن طلب مساعدة حان مجيئها ، جاءك الغوث ، وأمر الله عذابه  
للكافرين ، والروح : الوحى وهو قائم فى الدين مقام الروح من الجسد ، فهو يحى  
القلوب التى أماتها الجهول ، من أمره : أى بأمره ومن أجله ، أنذروا : أى خوفوا ،  
فاتقون : أى خافوا عقوبتى لخالفه أمرى وعبادة غيرى .

## المعنى الجملى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين تارة بعذاب الدنيا من قتل وأسر كما حدث يوم بدر ، وتارة بعذاب الآخرة ، ثم إنهم لما لم يشاهدوا شيئاً من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب روى أنه لما نزل قوله تعالى: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» قال الكافرون حين خلوا إلى شياطينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئاً مما نخوفنا به فنزل قوله تعالى: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ» فأشفقوا وانتظروا ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئاً مما نخوفنا به فنزل قوله: (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم فنزل قوله: (فلا تستعجلوه) .

## الإيضاح

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أى قرب عذاب المشركين وهلاكهم ، أما إتيانه بالفعل وتحققه فنموت بحكم الله النافذ وقضائه الغالب على كل شيء ، فهو يأتي في الحين الذى قدره وقضاه .

ونظم سبحانه المتوقع في صورة المحقق إيداناً بأنه واجب الوقوع ، والشىء إذا كان بهذه المثابة يسوغ فى عرف التخاطب أن يعد واقعا ، ومعنى قوله فلا تستعجلوه لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر فى علمه تعالى .

وفى هذا تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله وإعلام منه لهم بقرب عذابهم وهلاكهم الذى لا بد منه .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تبرأ الله تعالى عن الشريك والشفيع الذى يدفع الضر عنكم ، وفى هذا رد لمغالهم حين قالوا : لئن حكم الله علينا بإنزال العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة - لتشفعن لنا هذه الأصنام التى نعبدتها من دونه .

وخالصة هذا — إن تلك الجمادات الخسيسة التي جعلتموها شركاء لله وعبدتموها هي أحقر الموجودات وأضعف المخلوقات ، فكيف تجعلونها شريكة لله في التدبير والشفاعة في الأرض والسموات .

ثم أجاب عن شبهة لهم إذ قالوا : هب الله قضى على بعض عباده بالشر وعلى آخرين بالخير ، فمن يعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا هو ؟ فقال :

( ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ) أى ينزل سبحانه ملائكته بالوحي إلى من يريد من عباده المصطفين الأخيار ، أن أنذروا عبادى أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو ، وأنه لا تنبغى الألوهية إلا له ، ولا يصلح أن يعبد شيء سواه ، فاحذروه وأخلصوا له العبادة ، فإن فى ذلك نجاتكم من الهلكة ، وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحي فى قوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » وفى قوله : « يُبَلِّغِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

والمراد بقوله من أمره — بيان أن ذلك التنزيل والنزول لا يكونان إلا بأمره تعالى كما قال حكاية عن الملائكة : « وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » وقال : لا يَسْمَعُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » وقال : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » وقال : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » فى كل ذلك دليل على أن الملائكة لا يقدمون على عمل إلا بأمره تعالى وإذنه .

وفى الآية إيماء إلى أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بواسطة الملائكة ، ويؤيد ذلك قوله : « وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » فقد بدأ بذكر الملائكة لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله بلا وساطة ، وذلك الوحي هو الكتب ، وهم يوصلون هذا الوحي إلى الأنبياء — لاجرم جاء الترتيب على هذا الوضع .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ  
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا  
 دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ  
 تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بَشِقٌ  
 الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ  
 لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا  
 جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ  
 مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) مُبْدِتٌ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ  
 وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً  
 لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ  
 وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)  
 وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ  
 يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا  
 وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ  
 فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ  
 بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ  
 يَهْتَدُونَ (١٦) .

## شرح المفردات

أصل النطفة : الماء الصافي و يراد بها هنا مادة التلقيح ، والخصيم : بمعنى الخاصم  
 كالخليط بمعنى الخالط ، والعشير : بمعنى المعاشر والمراد به المنطيق المجادل عن نفسه  
 المنازع للخصوم ، والمبين : المظهر للحجة ، والدف : ما يستدفأ به من الأكسية ،  
 والمنافع : هي دَرَّها وركوبها والحِثُّ بها وحملها الماء ونحو ذلك ، جمال : أى زينة  
 فى أعين الناس وعظمة لديهم ، تريحون : أى تردونها بالعشى من المرعى إلى مراحيها  
 يقال أراح الماشية إذا ردها إلى المراح ، تسرحون : أى تخرجونها غدوة من حظائرهما  
 وميبتها إلى مسارحها ومراعيها ، والأثقال : واحدها ثقل وهو متاع المسافر ، وشق  
 الأنفس : مشقتها وتعبها ، القصد : الاستقامة ، يقال سبيل قصد وقاصد إذا أداك إلى  
 مطلوبك ، وجائر : أى مائل عن الحجة منحرف عن الحق ، وتسيمون : أى ترعون  
 يقال أسام الماشية وسومها جعلها ترعى ، وذراً : خلق ، ألوانه : أى أصنافه ، مواخر  
 واحدها ماخرة : أى جارية من مخر الماء الأرض أى شقها ، والميد : الحركة والاضطراب  
 يمينا وشمالا ، وعلامات : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل  
 ورائحة تراب .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزه عن الشريك والولد وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه  
 وإخلاص العبادة له - ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال  
 والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم ،  
 ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف فى صرف المشركين عما هم عليه من  
 الشرك ، وكلما بصرهم طائفة مما يرون ويشاهدون بكنهم على ما يقولون ويفعلون وبين  
 لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ،

ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم رابع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم القول بذكر أحوال العناصر الأربعة .

## الإيضاح

( خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ) أى خلق سبحانه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما جوت - بالحق أى على نبيج تقتضيه الحكمة ولم يخلقهما عبثاً ، منفرداً بخلقهما لم يشركه فى إنشائهما وإحداثهما شريك ، ولم يعنه على ذلك معين ، تعالى الله عن ذلك ، إذ ليس فى قدرة أحد سواه أن ينشئ السموات والأرض فلا تليق العبادة إلا له .

وبعد أن ذكر أدلة الأكوان ذكر خلق الإنسان فقال :

( خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ) أى خلق الإنسان من نطفة أى من ماء مهين - خلقاً عجيباً فى أطوار مختلفة ، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ماتم خلقه ونفخ فيه الروح فقذاه ونماه ورزقه القوت حتى إذا استقل ودرج نسي الذى خلقه خلقاً سويماً من ماء مهين ، بل خاصمه فقال : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » وعبد ما لا يضر ولا ينفع : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَاهِرًا » .

( والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون ) امتن سبحانه على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام إذ عدّها ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المنافع من الأصواف والأوبار والأشعار ، لباساً وفرشاً ، ومن الألبان شراباً ، ومن الأولاد أكلاً .

( ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ) أى ولكم فى هذه الأنعام زينة حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى منازلها التى تأوى إليها ، وحين إخراجها من مراحها إلى مسارحها وخصص هذين الوقتين بالذكر ، لأن الألفية تتزين بها

ويتجاوب ثنائيا وزغائوا حين الذهاب والإياب فيعظم أربابها في أعين الناظرين إليها ، وقدم الإراحة على السرح مع تأخرها في الوجود ، لأن الجمال فيها أظهر ، وجلب السرور فيها أكمل ، ففيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون ، إذ تكون ملى البطون حافلة الضروع .

( وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ) أى وهى أيضا تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة وجهد شديد .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ » وقوله : « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ » ( إن ربكم لرؤوف رحيم ) ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا حَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ؟ » .

( والخيل والبغال والحمير لركبوها وزينة ) أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضا لركبوها ، وجعلها لكم زينة تزينون بها - إلى مالكم فيها من منافع أخرى . ( ويخلق ما لاتعلمون ) غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقطر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبوها من بلد إلى آخر . ومن قطر إلى قطر ، والمطاود الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن شرح سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوي لمن أرادَه فقال :

(وعلى الله قصد السبيل) أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل من سلكه إلى الحق بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنا يضل عليها .

ونحو الآية قوله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقوله : « هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » .

(ومنها جائز) أى ومن السبل سبيل جائز عن الاستقامة معوج زائغ عن الحق ؛ فالسبيل القاصد هو الإسلام، والجائز منها هو غيره من الأديان الأخرى سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا — إن ثمة طرقا تسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها وهى طريق الإسلام له والإخبارات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : « فَأَتَيْنَاهُ مِنْ جَنِينٍ فَطَرَهُ اللَّهُ اتِّبَاطَ النَّاسِ عَلَيْهَا لِاتِّبَادِ خَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنذِبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » وما عداها فهو جائز ، وعلى الله بيان ذلك ليهدى إليه الناس ويتعدوا عن سواه .  
ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيبته فقال .

(ولو شاء لهداكم أجمعين) أى ولو شاء سبحانه لجعلكم كالنمل والنحل فى حياتكم الاجتماعية أو جعلكم كالملائكة مفلطين على العبادة وتقوى الله ، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وخصها من سائر وجوهها ثم ترجعون منها ما تميل إليه نفوسكم وترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

– طريق الخير والشر – إِمَّا شَا كِرًا وَإِمَّا كَافُورًا » وقد تقدم إيضاح هذا عند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا » وعند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّذِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

وبعد أن ذكر نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام – شرع يذكر نعمته عليهم في إنزال المطر فقال :

( هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون ) أى إن الذى خلق لكم الأنعام والخليل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم – هو الذى أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون أشجاركم ونباتكم التى تسميون فيها أنعامكم وفيها ترمى .

( ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ) أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم ومن كل الثمرات غير ذلك – أرزاقا لكم وأقواتا نعمة منه عليكم وحجة على من كفر به . ( إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ) أى إن فيما ذكر من إنزال الماء وغيره الأدلة وحججا على أنه لا إله إلا هو لقوم يعتبرون مواعظ الله ويتفكرون فيها حتى تطمئن قلوبهم بها وينبجج نور الإيمان فيها ، فيضىء أفئدتهم ويرزق نفوسهم ، فمن فكر فى أن الحبة والنواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة منها تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تلبسط فى الأرض ويخرج منها ساق تنمو وتخرج فيه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطباع – علم أن من هذه آثاره لا يمكن أن يشبهه شىء فى صفات كماله فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته وهى الألوهية واستحقاق العبادة .

ولله در القائل :

تأمل في رياض الورد وانظر إلى آثار ما صنع للمليك  
عيون من لجين شاخصات على أهدابها ذهب سبيك  
على قصب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

( وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ) أى ومن نعمه تعالى عليكم مضافة إلى النعم التي سلف ذكرها - أن سخر لكم الليل والنهار يتعاقبان خِلْفَةً لِمَنَامِكُمْ واستراحتكم وتصرفكم في معاشكم وسعيكم في مصالحكم ، وسخر لكم الشمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة ، وأدائهما ما نيظ بهما من تربية الأشجار والزرع وإنضاج الثمرات وتلويينها إلى نحو ذلك من الآثار والمنافع التي ربطها سبحانه بوجودهما ، وبهما يعرف عدد السنين والشهور ، وفي ذلك صلاح معاشكم ، وسخر لكم النجوم بأمره تجرى في أفلاكها بحركة مقدرة لا تزيد ولا تنقص ، انتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر .

( إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ) أى إن في ذلك التسخير لدلالات وانحاث لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون ما نبههم إليه بها .

وعبر هنا بالعقل وفي خاتمة الآية السالفة بالتفكير ، من قبل أن الآثار العلوية متعددة ، ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوجدانية ظاهرة لا تحتاج إلا إلى العقل من غير تفكير ولا تأمل ، بل تدرك بالبديهة ، بخلاف الآثار السفلية من الزرع والنبخيل والأعشاب فهي تحتاج في دلالتها على وجود الصانع إلى فكر وتدبر ونظر شديد .

( وما ذراً لكم في الأرض مختلفا ألوانه ) أى وما خلق لكم في الأرض من عجائب الأمور ومختلف الأشياء من معادن ونبات وحيوان على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها وخواصها .

( إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ) آلاء الله ونعمه فيشكرونه على ما أنعم  
ويخبتون إليه على ما تفضل به وأحسن .

وبعد أن ذكر أنواع النعم في البر شرع يفصل نعمه في البحر فقال :

( وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ) أى وهو الذى سخر لكم  
البحر - الماء المالح والعذب - لتأكلوا منه سمكا تصطادونه .

وفي وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه  
الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ،  
فسبحان الخبير بخلقته ومعرفة ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيحاء إلى كمال قدرته  
تعالى في خلقه العذب الطرى في الماء المر الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء وهو الذى يموت حتف أنفه  
في الماء فيطفو على وجهه لحديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مانضب عنه الماء  
فكلا ، وما لفظه الله فكلا ، وما طفا فلا تأكلوا » فالمراد من ميتة البحر في الحديث  
« هو الظهور مأوه الحل ميتته » ما لفظه لا مامات فيه من غير آفة .

( وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ) كالؤلؤ الخلق في صدفه العائش في البحار  
ولاسيا المحيط الهندي ، والمرجان الذى ينبت في قيعانها ، وتوجد حقول من المرجان  
في البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ، متى تم بيعها حصدها الدولة الفرنسية  
وباعتها للمسلمين وهم لا يعلمون شيئا من أمرها ، وكانهم لم يقرءوا القرآن وكانهم  
لم يخلقوا في هذه الأرض ، وكانهم يقولون : ربنا لا نستخرج ، بل نشترى من  
المستخرجين من الأرض ، وكانهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح ، وبذا حرموا  
على أنفسهم ما أباحه الله لهم ، وقد بلغ ما استخرج من المرجان سنة ١٨٨٦م ٧٧٨ ألف  
كيلو جرام ثمنها خمسة ملايين وسبعائة وخمسون ألف فرنك .

( وترى الفلك مواخر فيه ) أى وترى السفن جواري فيه تشقه بجيروزها ومقدمها  
مقبلة مدبرة من قطر إلى قطر ومن بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك  
إلى هنا ، وما هنا إلى هناك ومن ثم قال :

( ولتبتغوا من فضله ) أى ولتطلبوا فضل الله ورزقه بركوبه للتجارة .  
 ( ولعلكم تشكرون ) أى ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ، إذ جعل ركوب  
 البحر مع كونه مظنة للهلاك سببا للانتفاع وحصول المعاش مع عدم الحاجة إلى الخل  
 والترحال والاستراحة والسكون ، والله در القائل :

وإنا لفي الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسرى  
 ( وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم ) أى وألقى في الأرض جبالا ثوابت  
 لتقر ولا تضطرب بما عليها من الحيوان ، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك كما قال :  
 « وَالْجِبَالُ أَرْسَاةَا » وما الأرض إلا سفينة على وجه الماء ، فإذا لم يكن فيها أجرام  
 ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى الأسباب ، وإذا وضعت فيها أجرام  
 ثقيلة تستقر على حال واحدة ، فكذا الأرض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت  
 وقد تقدم إيضاح هذا وسيأتى بعد .

( وأنهارا ) أى وجعل فيها أنهارا تجري من مكان إلى آخر رزقا للعباد ، فهي  
 تنبع في مواضع وهي رزق لأهل مواضع أخرى ، فهي تقطع البقاع والبرارى وتخترق  
 الجبال والآكام حتى تصل إلى البلاد التى سخر لأهلها أن تنتفع بها كما يشاهد في نهر  
 النيل ، إذ ينبع من أواسط أفريقيا ويمر بجبال ووهاد في السودان ويستفيد منه الفائدة  
 الكبرى أهل مصر دون سواها ، وكل ذلك بتقدير اللطيف الخبير .

( وسبلا ) أى وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا نسلك فيها من بلاد إلى أخرى ،  
 وقد تحدث ثمة في الجبل لتكون ممرا وطريقا كما قال تعالى في وصف الجبال :  
 « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا » الآية .

( لعلكم تهتدون ) بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون .  
 ( وعلامات ) أى وجعل فيها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال  
 كبار وآكام صغار ونحو ذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عوناله وهدته إلى السبيل  
 السوى في البر أو في البحر .

(وبالنجم هم يهتدون) بالليل فى البرارى أو فى البحار، وفى الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل فى معرفة الأوقات والطرق والقبلة، ويحسن أن تتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة.

قال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة للسماء، ومعالم للطرق، ورجوما للشياطين، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به.

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ قَالِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣).

### شرح المفردات

المراد بمن يخلق: الله سبحانه وتعالى، ومن لا يخلق: الملائكة وعيسى والأصنام، وما يشعرون: أى لا يعلمون، وأيان: كفى كلمتان تدلان على الزمن، لا جرم: أى حقا.

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وكان فى ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجود الإحسان - قفى على ذلك بتبكييت الكفار وإبطال لشركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان،

لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينها ، ثم أردف ذلك ببيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده ، وأنهم مهملون في الشكر واجتهدوا في العبادة فليسوا يبالغون شيئاً مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرطوا من كفرانها ، ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ، ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهي علم السر والنجوى والتخلق وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهي مخلوقة لاختلاقه ، ولا شعور لها بحشر ولا نشر ، ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له ، ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الإشراف وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد فهي لا ترغب في الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان - لاجرم بقيت مصرّة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

### الإيضاح

( أفن يخلق من لا يخلق؟ أفلا تذكرون؟ ) أى أفن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددها عليكم وينعم هذه النعم العظيمة - من لا يخلق شيئاً ولا ينعم نعماً صغيرة ولا كبيرة ، أفلا تذكرون هذه النعم وهذا السلطان العظيم والقدرة على ما شاء من الحكمة ، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها ، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع ضراً ، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها وإقراركم بالألوهية .

وخلاصة هذا - الإنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لا يحصى من النعم ، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكير وإطالة نظر ، بل يكفي فيه تنبيه العقل ليعلم أن العبادة لا تليق إلا بالنعم بكل هذه النعم ، أما هذه الأصنام التي لا تفهم لها ولا قدرة ولا اختيار فلا تنبغى عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها .

قال قتادة في الآية : الله هو الخالق الرازق ، لاهذه الأوثان التي تعبد من دون الله لا تخلق شيئاً ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً .

و بعد أن نبههم سبحانه إلى عظمته ذكرهم بنعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال :  
( وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) أى وإن تعدوا نعم الله لا تضبطوا عددها  
فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها ، فإن العبد مهما أتعب نفسه فى طاعته ،  
وبالغ فى شكران نعمه ، فإنه يكون مقصرا ، فنعم الله كثيرة ، وعقل الخلق قاصر عن  
الإحاطة بها ، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التتصير ، وإلى ذلك أشار بقوله :

( إن الله لغفور ) فيستر عليكم تصيركم فى القيام بشكرها .

( رحيم ) بكم فيفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون  
وما تزدون من أصناف الكفر والمعصيان ، ومن أفضع ذلك وأعظمه جرما المساواة  
بين الخالق والمخلوق .

قال بعض الحكماء : إن أى جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغص على الإنسان  
النعم ، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم ، وهو سبحانه  
يدبر جسم الإنسان على الوجه للملائم له ، مع أنه لا علم له بوجود ذلك ، فكيف يطبق  
حصر نعمه عليه أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أدناها ؟ .

ربنا هذه نواصينا بيدك ، خاضعة لعظم نعمك ، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر  
لشئ منها ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطبق التعبير  
بالشكر لك ، فتجاوز عنا ، واغفر لنا ، وأسبل ذبول سترك على عوراتنا ، فإنك إلا  
تفعل نهلك ، لتتصيرنا فى شكر نعمك ، فكيف بما فرط منا من التساهل فى الأثمار  
بأوامرك ، والانتها عن مناهيك :

العفو يرجى من بنى آدم فكيف لا يرجى من الرب اه

و بعد أن أبطل عبادة الأصنام ، من قبل أنها لا قدرة لها على الخلق والإينام ،  
أبطل عبادتها بوجه آخر وهو أن الإله يجب أن يكون علما بالسر والعلانية ، وهذه  
الأصنام جهال لا معرفة لها بشئ فكيف تجمل عبادتها ؟ وإلى ذلك أشار بقوله :

( والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ) أى والله يعلم ما تسرونه فى ضمائركم وتخفونه  
عن غيركم وما تبدونه بالسننكم وجوارحكم وأفعالكم ، وهو محص ذلك كله عليكم

فيجازيكم به يوم القيامة ، فيجازي الحسن بإحسانه ، والسيء منكم بإساءته ، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على النعم التي أنعمها عليكم فيها ، ما أحصيتم منها وما لم تحصوا .

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة تنبيهاً إلى كمال حماقة المشركين وأنهم لا يفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلويح فقال :

(١) ( والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ) أى والأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة ، فكيف يكون إلهاً ما يكون مصنوعاً ، وغيره هو الذى دُبر وجوده ؛ ونحو الآية قوله : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

(٢) ( أموات غير أحياء ) أى هي أموات ولا تعثرها الحياة بوجه ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، وفائدة قوله غير أحياء بيان أن بعض ما لا حياة فيه قد تدركه الحياة بعد كالتلطفة التي ينشئها الله تعالى حيواناً ، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها ، أما هذه الأصنام من الحجارة والأشجار فلا يعقب موتها حياة وذلك أتم في نقصها .

(٣) ( وما يشعرون أيان يبعثون ) أى وما تدرى هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله متى تُبعث عبدتها .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهمك بها ، لأن شعور الجداد بالأمور الظاهرة بديهى الاستحالة لدى كل أحد ، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير ؛ كما أن فيه تهكما بالمشركين من قيل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم ، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف لأنه جزاء على العمل من خير أو شر ، وأن معرفة وقته لا بد منه فى الألوهية .

ولما أبطال طريق عبدة الأصنام وبين فساد مذهبهم صرح بالمدعى ونخلص النتيجة بعد إقامة الحجة فقال :

( إلهم إله واحد ) أى معبودكم الذى يستحق العبادة وإفراد الطاعة له دون

سائر الأشياء - معبود واحد لاتصلح العبادة إلا له ، فأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة ولا تجملوا معه شريكا سواه .

ثم ذكر الأسباب التي لأجلها أحرر الكفار على الشرك وإنكار التوحيد فقال :  
 ( فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ) أى والذين لا يصدقون بوعد الله ولا وعيده ، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد المات - قلوبهم جاحدة لما قصصناه عليكم من قدرة الله وعظمته وجزيل نعمه عليهم ، وأن العبادة لاتصلح إلا له والألوهية ليست لشيء سواه ، فلا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينجع فيها تكبير ؛ وهم مستكبرون عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمرون على الجحد تقليدا لما مضى عليه آبائهم من الشرك به كما حكى سبحانه عنهم قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » وقولهم : « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » وقال : « وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » .

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال :

( لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ) أى حقا إن الله يعلم ما يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك واستكبارهم على الله ، ويعلم ما يعلنون من كفرهم به وافترائهم عليه .

ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال :

( إنه لا يحب المستكبرين ) أى إن الله لا يحب المستكبرين عن توحيده .  
 والاستجابة لأنبيائه ورسوله ، بل يبغضهم أشد البغض وينتقم منهم أعظم الانتقام .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل

النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال رجل : يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر من بظن الحق ، ونمص الناس . وفي الصحيح « إن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة تطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم » .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)  
 لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُخْلُونَهُمْ بِغَيْرِ  
 عِلْمٍ ، الْأَسَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ  
 بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ  
 حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي  
 الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ  
 وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ،  
 فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ  
 تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى  
 الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) .

### شرح المفردات

الأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح ، وهي الترهات والأباطيل ،  
 والأوزار : الآثام واحدها وزر ، ساء ما يزرون : أى بئس شيئاً يحماؤنه ، والمكر :  
 صرف غيرك عما يريد به بحيلة ، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ،  
 فأتى الله بنيانهم من القواعد : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، والقواعد:

الدعائم والعمد : واحدها قاعدة ، خرّ : سقط ، يخرّضهم : يذلّم ويهينهم ، وتشاقون أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم ، وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، والذين أوتوا العلم : هم الأنبياء ، والسلم : الاستسلام والخضوع ، بلى : بمعنى نعم ، والمثوى : مكان الثواء والإقامة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام ، أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها ، وبين أنهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة فقد سبقتهم أمم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم فى الدنيا وسيخرّضهم يوم القيامة بما فعلوا ، ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء ، ولكن الله عليم بهم ويمافعلوا ، ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هى :

## الإيضاح

( وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين : أى شىء أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئاً إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين . ونحو الآية قوله حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » وكانوا يفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالاً مختلفة ؛ فتارة يقولون إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر أو كاهن ، وثالثة إنه مجنون ، ثم قرّرواهم على ما اختلعه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومى كما حكى عنه الكتاب الكريم : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ يُؤْتِرُ » أى ينقل ويحكى ، فنفر قوا معتقدين

صحة قوله ، وصدق رأيه ، وقبحهم الله ، وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج ويقولون هذه المقاتلة .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

( ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ) أى وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ، لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالتهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَمَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَمًّا كَانُوا يَفْقَرُونَ » والمراد من قوله ( كاملة ) أنه لا ينقص منها شيء ولا يكفر بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ، ولإطاعة مقبولة تكفر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله بغير علم - بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وأنهم على الباطل ، وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب ، وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء ، وزيادة تعبير وذم لهم ، إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لإضلالهم .

وقصارى القول - إن هؤلاء قد دنسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار ، كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضا ، والله تعالى لم يظلمهم فيما جازاهم به ، بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

( ألساء ما يزرعون ) أى بأس شيئا يرتكبونه من الإثم والذنوب ما يفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ، ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيبهم لرسولهم فقال : ( قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ) أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الخيل ونصبوا الخبائل ليحكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم ، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فضعفت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه - فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين في البنيان صار سبب الهلاك ، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالأعلى عليهم ، ونحو الآية قولهم في المثل : من حفر لأخيه جُبًّا ، وقع فيه منكبًا .  
 وخلاصة ذلك — إن الله أحبب أعمالهم وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم .  
 وبعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر في الدنيا من العذاب والهلاك ، بين حالهم في الآخرة فقال :

( ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ) أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب اليم ، ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية : أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائى ، وهلا تحضروهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب ، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا وتتولونهم ، والولى يتصر وليه .

والمراد من المشاقة فيهم محاصصة الأنبياء وأتباعهم في شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حقا حين بينوا لهم ذلك ، والمراد بالاستهزاء عن ذلك الاستهزاء والتكيت والاحتقار لشأنهم ، إذ كانوا يقولون : إن صح ما تدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا .  
 وبالإضافة — إنه لا شركاء ولا أما كن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين في شأنهم يوم القيامة .

( قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ) أى قال الذين

أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم في الدنيا إلى دينهم ، فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسوله - ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمروا كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالموا أنفسهم فقال :

( الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ) أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالموا أنفسهم ومعرضوها للعذاب الخالد بكفرهم ، وأى ظلم للنفس أشد من هذا الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال :

( فأتقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ) أى فاستساموا وانقادوا حين عاينوا

العذاب قائلين : ما كنا نشرك بربنا أحدا ، وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة ، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

ثم أ كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال :

( بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ) أى بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح

الآثام والله عليم بذلك ، فلا فائدة لكم في الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين ما يترتب على قبيح أفعالهم فقال :

( فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ) أى فادخلوا طبقات

جهنم وذوقوا ألوانا من العذاب ، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجترأكم

عظيم الموبقات والمعاصي - خالدين فيها أبدا ، وبئس المقيل والمقام دار الذل والهوان

لمن كان متكبرا عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التى أنزلت عليهم ، وما أفظعها

من دار ، وصفها ربنا بقوله : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَؤُنَا وَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرًا، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا  
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)  
 جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ،  
 كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ  
 يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢).

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين يفكرون وحيه ويقولون  
 إن محمداً قد لفق أساطير الأولين وترهاتهم ونقلها للناس وادعى أنها من رب الأرض  
 والسموات، وذكر ما سينالهم من النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء  
 ما اجتاحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصي - أردف ذلك بوصف المؤمنين  
 الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً، وبذكر ما أعد لهم من الخير والسعادة  
 في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقاً لما أحسنوا من العمل وأتوا به من  
 جميل الصنع.

### الإيضاح

( وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ) أى وقيل للذين خافوا عقاب  
 ربهم : أى شيء أنزله ربكم؟ قالوا أنزل خيراً وبركة ورحمة لمن اتبع دينه وآمن برسوله.  
 روى ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً  
 رجل حاو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بمقله ، فانظروا ناساً من أشرفكم  
 المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة  
 أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه ، فخرج ناس في كل طريق ، فكان إذا أقبل

الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم أنا فلان بن فلان فيعرفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لاخير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : ( وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ) فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بأس الوافد لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ما يقول وآتى قومي ببيان أمره ، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيرا .

ثم فصلوا هذا الخير فقالوا .

( للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ) أى للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه في هذه الدنيا ، ودعوا عباده إلى الإيمان والعمل بما أمر به - مشوبة حسنة من عند ربهم كفاء ما قدموا من عمل صالح .

ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم ذكر جزاءهم في الآخرة وما فيه من جزيل النعم فقال :

( ولبار الآخرة خير ) من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في تلك . ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَسَّكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » الآية ، وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله لرسوله : « وَلَا خَيْرَ خَيْرٍ لَّكَ مِنَ الْوَالِي » .

وفصل هذا الجزاء بقوله :

( ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار ) أى ولنعمت

الدار للمتقين جنات إقامة تجرى من بين قصورها وأشجارها الأنهار ، حسنت مستقرا ومقاما .

ثم بين أن نعمها غير ممنوعة ولا مقطوعة فقال :

( لهم فيها ما يشاءون ) أى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا فى جنات عدن ما يشاءون مما تشتهى أنفسهم وتقرّ به أعينهم كما قال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم ذكر أن هذا جزاء على إحسان الأعمال فقال :

( كذلك يجزى الله المتقين ) أى مثل ذلك الجزاء الأوفى يجزى الله الذين اتقوا الشرك والمعاصى .

وفى هذا حث المؤمنين على الاستمرار على التقوى وحث لغيرهم على تحصيلها . ثم وصف الله المتقين بقوله :

( الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ) فالراغب : الطيب من الناس من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تركوا أقواله وأفعاله .

( وطيبين ) كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعانى ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبرائتهم من ذمير الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها ، ومن هذه حاله لا يألم بال موت كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نِزْلًا مِنْ غَمُورٍ رَحِيمٍ » .

ثم ذكر ما تقوله لهم الملائكة تبشيرا لهم فقال :  
 ( يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ) أى تقول لهم الملائكة :  
 سلام عليكم لا يحيق بكم مكروه بعد ، ادخلوا الجنة التى أعدها لكم ربكم ووعدكموها  
 بما قدمتم من عمل ، وبما دأبتم على تقواه وطاعته ؛ والمراد من قوله ( ادخلوا الجنة )  
 البشارة بالدخول فيها بعد البعث إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان ، فإن أريد  
 الدخول بالأرواح فحسب كان ذلك حين التوفى كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم  
 « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .  
 أخرج ابن جرير والبيهقى عن محمد بن كعب القرظى قال : إذا أشرف العبد  
 المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك يا ولى الله ، الله يقرأ عليك السلام  
 وبشره بالجنة اه .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ  
 فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظُنُّونَ (٣٣)  
 فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)

### شرح المفردات

ينظرون : ينتظرون ، وأمر ربك : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، وحاق بهم  
 أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر طعن المشركين فى القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه  
 قول شاعر ، ثم هدهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالوعد بالشواب لمن  
 صدق به - ففى على ذلك بيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم .

الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال فلا يبق منهم أحدا ، ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

## الإيضاح

( هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ) أى ما ينتظر كفار مكة الذين قالوا إن القرآن أساطير الأولين ، إلا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم .

( أو يأتي أمر ربك ) بالعذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم من الكفار ، فيرسل عليهم الصواعق أو يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وهذا تهديد لهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا .

وخالصة هذا — حشيم على الإيمان بالله ورسوله ، والرجوع إلى الحق قبل أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من السالفين المكذبين لرسولهم .

ثم ذكر أنهم ليسوا بأول من كذب الرسل فقال :

( كذلك فعل الذين من قبلهم ) أى هكذا تمادى أسلافهم فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا وحل بهم عذابنا ونكالنا .

ثم ذكر أن ما يصيبهم جزاء لما كسبت أيديهم فقال :

( وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) أى وما ظلمهم الله بإنزال العذاب بهم ، لأنه أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتكذيبهم ما جاءوا به .

ثم أعقبه بذكر ما ترتب على أعمالهم فقال :

( فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ) أى فلهذا أصابهم

عقوبة الله على ما فعلوا وأحاط بهم عذابه الأليم جزاء ما كانوا يسخرون من الرسل حين توعدوهم بعقابه .

ونحو الآية قوله : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تُكَذِّبُونَ » .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) .

### شرح المفردات

الطاغوت: كل معبود دون الله من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله « يُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذَ كَهْمَا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » وعلى الجمع كقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » حقت: وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد أو أتاهم عذاب الاستئصال كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسول الله - قفى على ذلك ببيان أنهم طعنوا في إرسال الأنبياء جملة وقالوا

إننا مجبورون على أعمالنا فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن تؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من الله . وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب دعوته ومنهم من أضله الله على علم ، فحقت عليهم كلمة ربك وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب في الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم ، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفك شيئاً ، فإن الله لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يجحد أحداً يدفع عنه بأس الله ونقمته .

## الإيضاح

( وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء ) أى وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر : ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضى عبادتنا لها ، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأن الله قد رضى ذلك منا ، ولو كان كارهاً لما فعلنا لهدانا إلى سواء السبيل ، أو لعجل لنا العقوبة وما مكنتنا من عبادتها . وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

( كذلك فعل الذين من قبلهم ) أى ومثل ذلك الفعل الشنيع فعل الذين من قبلهم من الأمم واستن هؤلاء سنتهم وسلوكوا سبيلهم فى تكذيب الرسول واتباع أفعال آبائهم الضلال .

ثم بين خطأهم فيما يقولون ويفعلون فقال :

( فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ) أى فهل على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم من أمره ونهيهِه إلا إبلاغ الرسالة وإيضاح طريق الحق وإظهار أحكام الوحي التي منها أن مشيئته تعالى تتعلق بهداية مَنْ وَجَّهَ همته إلى تحصيل الحق كما قال « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » وليس من وظيفة إلقاء الناس إلى الإيمان شاءوا أو أبوا ، فإن ذلك ليس من شأنهم ولا من الحكمة التي عليها مدار التكليف حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك .

وقصارى هذا— إن الثواب والعقاب لا بد فيهما من أمرين : تعلق مشيئته تعالى بوقوع أحدهما ، وتوجيه همه العبد إلى تحصيل أسبابه وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده ، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا ، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي ، أما العمل بها إلقاء وقسرا فليس من وظيفةهم لافي كثير ولا قليل .

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها ، وجعلت سببا لهدى من أراد الله هدايته وزيادة ضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوى ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه فقال :

( ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) أى ولقد أرسلنا في كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم رسولا ، فقال لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له واحذروا أن يعوكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فضلوا .  
ونحو الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » .

وإجمال القول — إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية ، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، والمشية الكونية وهي تمكين عباده من الكفر وتقديره لهم

على حسب اختيارهم وضرف همتهم إلى تحصيل أسبابه ، لاجحة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة ناصعة وحكمة بالغة .

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال :

(فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى فمن بعضنا فيهم رسلنا من هداه الله ووفقه لتصديقهم وقبول إرشادهم والعمل بما جاءوا به ، فجازوا وأقلحوا ونجوا من عذابه ، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت فأهلكهم بعقابه وأنزل بهم شديد بأسه الذى لا يرد عن القوم الجرمين .

(فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى فسيروا في الأرض التى كان يسكنها القوم الظالمون ، والبلاد التى كانوا يعمرونها كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة ، وانظروا إلى آثار سخط الله عليهم ، لعلمكم تعتبرون بما حل بهم .

ثم خاطب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم مسلماً له عما يراه من جحود قومه وشديد إعراضهم ومبالغةهم في عنادهم مع حذبه عليهم وعظيم رغبته في إيمانهم ، ومبيناً له أن الأمر بيد الله وليس له من الأمر شيء فقال :

(إن تحرص على هدام فإن الله لا يهدى من يضل) أى إن تحرص أيها الرسول على هداية قومك - لا ينفعهم حرصك إذا كان الله يريد إضلالهم بسوء اختيارهم وتوجيه عزائمهم ، إلى عمل المعاصى والإشراك بربهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله حكاية عن مقالة نوح لقومه : « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ » وقوله : « مَنْ يَضَلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ومحمل القول — إن من اختار الضلالة ووجه همته إلى تحصيل أساليبها فآله سبحانه لا يخلق فيه الهداية فسرا وإجاء ، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإلجاء والاضطرار .

( وما لهم من ناصرين ) أى وما لهم ناصر ينصرهم من الله إن أراد عقوبتهم كما قال : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) .

### شرح المفردات

الجد ، بفتح الجيم : المشقة : وبضمها : الطاقة ، وجهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، وبلى : كلمة جواب كنفم لسنها لاتقع إلا بعد النفي فتثبت ما بعده ، وعدا عليه حقا : أى وعد ذلك وعدا عليه حقا ، أى ثابتا متحققا لاشك فيه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حجيتهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعا ، لأننا مجبورون فيما نفضل ، وأنه لو شاء الله أن مهتدى لكان ، دون حاجة إلى إرسال الأنبياء ، وردّه عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه ولا يلزمون أحدا بإيمان ولا كفر — أردف هذا بشبهة أخرى لهم ، إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن

العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة - ذلك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاءه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب ، فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعدا حقا ، وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصى من المطيع ، وأيضا فياجده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلة ، بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالمة قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فسكان فيما تكلم به ، والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت ، فأبى الله ( وأقسموا بالله جهد أيمانهم ) الآية . وأخرج هؤلاء عن أبي هريرة قال : « قال الله سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، فأما تكذيبه إياي فقال ( وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ) وقلت : ( بلى وعدا عليه حقا ) وأما سبه إياي فقال : ( إن الله ثالث ثلاثة ) وقلت : ( هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ) » .

## الإيضاح

( وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ) أى إنهم اجتهدوا في الحلف وأغلظوا في الأيمان أنه لا يقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله ، من جراء أن الميت يفتى ويمد ، والبعث إعادة له ، وإعادة المدوم مستحيلة . وقد رد الله عليهم وكذبهم بقوله :

( بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) أى بلى سيعثه الله بعد مماته وقد وعد بذلك وعدا حقا لا بد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم يشنون الله وصفات كماله من علم وقدرة وحكمة ونحوها ، لا يعلمون أن وعد الله لا بد من نفاذه .

وأنه باعثهم بعد ماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قبل هذا جرّعوا على مخالفة الرسل ووقعوا في الكفر والمعاصي .

ثم ذكر سبحانه الحكمة في العباد ، وقيام الأجساد يوم التناد فقال :

( ليبين لهم الذي يختلفون فيه ) أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل وخالفتهم فيه أمهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصي والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

( وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ) أى وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في قولهم : لا يبعث الله من يموت ، وسيدعون إلى نار جهنم دعاً وتقول لهم الزبانية : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ . أَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . أَضَلُّوْهَا فَاضْبُرُوا أَوْ لَا تَصْبُرُوا سَوَاءَ عَلَيْكُمْ إِمَّا تُجِزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فقال : ( إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ) أى إنا إذا أردنا أن تبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائه ولا بعثه ، لأننا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له : كن فيكون ، لامعانة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله : « فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » وقوله : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِشْرَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

وخلاصة هذا — إنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول الأمور حين أمر الأمر وقوله دون هوادة ولا تراخ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ،  
وَلِأَجْرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) .

## المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمنهم على إنكار البعث والقيامة، وتماديهم فى النفى والضلالة، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بأنوان من الإيذاء حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) - ذكر هنا حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات فى الدنيا وأجر فى الآخرة، من جراء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله - وفى هذا ترغيب لغيرهم فى الهجرة واحتمال كل أذى فى سبيل الله احتساباً للأجر - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلنا لهم دار هجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين .

## الإيضاح

(والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لننبوئهم فى الدنيا حسنة) أى والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لأجر الله ونيلاً لمرضاته من بعد ما ظلمهم من الكفار من أذى فى أنفسهم وأموالهم - لنسكنهم فى الدنيا مساكناً حسنة يرضونها، إذ هم لما تركوا مساكنتهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم خيراً منها فى الدنيا، فسكن لهم فى البلاد، وحكمهم فى رقاب العباد، وصاروا أمراء وحكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً .

ثم أخبر سبحانه أن ثوابه لهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال :

( ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ) أى وثواب الله إياهم على هجرتهم من أجله في الآخرة أكبر ، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التى لا ينفى نعيمها ولا يزول خيرها .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءً يقول خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ذخره لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية .

( الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ) أى هؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ولم يرجعوا اليأس ، وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم اللغة نسب ولا جوار فى دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ  
 إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ  
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا  
 السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ  
 لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُوبِهِمْ فَاهُمْ مُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ  
 يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى  
 مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَكَّرُونَ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ  
 دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ  
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

### شرح المفردات

أهل الذكر : أهل الكتاب كما قال : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد  
الذِّكْرِ » أي التوراة ، والبينة : هي المعجزات الدالة على صدق الرسول ، والزرير :  
واحدها زبور ، وهي كتب الشرائع والتكاليف التي يبلغها الرسل إلى العباد ، والذكر :  
القرآن ، لتبين للناس : أي لتوضح لهم ما خفي عليهم من أسرار التشريع ، والمكبر :  
السعي بالفساد خفية ، والسيئات : أي الأعمال التي تسوءهم عاقبتها ، يخسف بهم  
الأرض : أي يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، في تقلبهم : أي في أسفارهم وسيرهم  
في البلاد البعيدة للسعي في أرزاقهم كما قال : « لا يَغْرَبَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
فِي الْبِلَادِ » بمعزين : أي بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار ، والتخوف : التناقص  
من قولهم تخوفت الشيء وتخيفته إذا تناقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم  
قليلا قليلا حتى يأتي عليها الفناء جميعا ، ويتفياً : من الفء يقال فاء الظل فيء فيئا  
إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، والظلال : واخذها ظل وهو ما يكون  
أول النهار قبل أن تناله الشمس ، قال رؤبة : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه  
فهو فيء ، ومالم يكن عليه الشمس فهو ظل ، واليمين والشمال : جانبا الشيء الكثيف  
من الجبال والأشجار وغيرها ، والسجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت  
النخلة إذا مالت لسكرة الحمل ، ومنه قوله : « واسجد لقرء السوء في زمانه » أي اخضع  
له ، داخرون : أي صاغرون متقادون واحدهم داخرو وهو الذي يفعل ما تأمره به شاء  
أو أبى ، يخافون ربهم : أي يخافون عقابه ، من فوقهم : أي بالقهر والغلبة كما قال :  
« وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها وهم لا يصدقون بها وليس من المعقول أن تكون - أردف ذلك بشبهة أخرى لهم إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشرا فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكا ، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسوله من البشر ، وإن كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب عن ذلك ، ثم هددهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتيتهم بعذاب من السماء فيهلككم بغتة كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون في أسفارهم ومعايشهم ، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى ؛ ثم أعتب هذا بما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

## الإيضاح

( وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم ) أى وما أرسلنا من قبلك رسلا إلى أممهم للدعوة إلى توحيدنا والانتهاى إلى أمرنا - إلا رجلا من بنى آدم نوحى إليهم لاملائكة .

ومجمل القول - إننا لم نرسل إلى قومك إلا مثل الذين كنا نرسلهم إلى من قبلهم من الأمم أى رسلا من جنسهم وعلى منهاجهم ؛ روى الضحاك عن ابن عباس أن الله لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أنكر العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله : « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » الآية .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » وقوله : « مَا هَذَا »

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ» وقوله : « وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا » .

( فاسألوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون ) أى فاسألوا أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى : أبطرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرًا فلا تتكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً .  
( بالبينات والزبر ) تقول العرب زبرت الكتاب : أى كتبتة كما قال تعالى « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى وما أرسلنا رسلاً إلا رجالاً بالأدلة والحجج التى تشهد لهم بصدق نبوتهم ، والكتب التى تشمل التكليف والشرائع التى يبلغونها من الله إلى العباد .

( وأنزّلنا إليك الذكّر لتبين للناس ما نزل إليهم ) أى وأنزّلنا إليك القرآن تذكراً وعظة للناس ، لتعرفهم ما أنزل إليهم من الأحكام والشرائع وأحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب جزاء عنادهم مع أنبيائهم ، وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام وتفصل لهم ما أجهل على حسب مراتبهم فى الاستعداد والفهم لأسرار التشريع .  
( ولعلّهم يتفكرون ) أى وتوقعا منك وانتظارا لتفكيرهم فى هاتيك الأسرار والمعبر ، وإبعادا لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذبين حتى لا يصيبهم مثل ما أصابهم .  
ثم حذرهم وخوفهم مغبة ما هم فيه من العصيان والكفر فقال :

( أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتينهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لءوف رحيم ) أى أفأمن الذين مكروا برسول الله من أهل مكة ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان بالله أن يصيبهم بعقوبة من عنده :

( ١ ) إما بأن يخسف بهم الأرض ويبيدهم من صفحة الوجود كما فعل بقارون .

من قبل .

(٢) وإما بأن يأتيهم بعذاب من السماء فجأة من حيث لا يشعرون كما صنع بقوم لوط .

(٣) وإما بأن يأخذهم بعقوبة وهم في أسفارهم يكدحون في الأرض ابتغاء الرزق ، وما هم بممتنعين عليه فائتين له بالهرب والفرار كما قال : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

(٤) وإما بأن يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعد ذلك ، بأن يهلك طائفة فتخاف التي تليها حتى يأتي عليهم جميعا ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاما ووحشة .

وختم الآية بما ختم به ، لبيان أنه لم يأخذهم بعذاب معجل ، بل أخذهم بحالات يخاف منها كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل ، وفي ذلك امتداد وقت ومهلة يمكن فيها تلافى التقصير ، وهذا من آثار رحمته بعباده .

ثم ذكر آثار قدرته على خلقه فقال :

( أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ) أى ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال التي تتفياً ظلالها وترجع من موضع إلى موضع عن اليمين والشمائل ، فهي في أول النهار على حال ثم تنقلص ثم تعود إلى حال أخرى في آخر النهار مائلة من جانب إلى جانب ومن ناحية إلى أخرى ، صاغرة منقادة لربها خاضعة لقدرته .

ثم ذكر ما هو كالدليل لما سلف فقال :

( والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ) أى والله يخضع ما فى السموات وما فى الأرض مما يبد عليها ، وكذلك ملائكته الذين فى السماء وهم لا يستكبرون عن التذلل والخضوع له .

( يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ) أى يخاف هؤلاء الملائكة

والدواب التي في الأرض ربهم الذي هو من فوقهم بالقوة والقهر - أن يعذبهم إن عصوه ، ويفعلون ما أمرهم به ، فيؤدون حقوقه ويحتمنون سخطه .  
 ونحو الآية قوله : « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ » .  
 ومجمل القول - إنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته وكبريائه تدين له المخلوقات بأسرها بجادها ونباتها وحيوانها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة .

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ، فَإِذَا بَرَأَ فَأَرْهَبُونَ (٥١) وَآلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ؟ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) .

### شرح المفردات

الرهبة : الخوف ، والدين : الطاعة ، والواصب : الدائم كما قال : « لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » وتجأرون : أى تتضرعون لكشفه . وأصل الجوار : صياح الوحش ثم استعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

### المعنى الجملى

لما بين سبحانه في الآيات السابقة أن كل ما سواه من جاد وحيوان وإنس ورجن وملاك - منقاد له وخاضع لسلطانه - أتبع ذلك بالنهي عن الشرك به ، وبيان أن كل ما سواه فهو ملكه وأنه مصدر النعم كلها ، وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه

الضر، فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار مدئذ ما يحمل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سوء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

## الإيضاح

(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فأياي فارهبون) أى وقال الله لعباده : لا تتخذوا لى شريكاً ولا تعبدوا سواى ، فإنكم إذا عبدتم معى غيرى جعلتموه لى شريكاً ، ولا شريك لى ، إنما هو إله واحد ، ومعبود واحد ، وأنا ذاك ، فاتقونى وخافوا عقابى ، بمعصيتكم إياى ، بإشراككم بى غيرى ، أو عبادتكم سواى .

وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه ، للدلالة على أن النهى عنه هى الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما أن وصف الإله بالوحدة فى قوله (إنما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات الوجدانية وأنها من لوازم الألوهية ، أما الألوهية فغير منكورة ولا متنازع فيها .

والخلاصة — إنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو وأنه لا تنبغى العبادة إلا له وحده (وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً) أى والله ملك ما فى السموات والأرض من شىء ، لا شريك له فى شىء من ذلك ، وهو الذى خلقهم ، وهو الذى يرزقهم ، ويبيده حياتهم وموتهم ، وله الطاعة والإخلاص على طريق الدوام والثبات . ثم ذكر ما هو كالتنتيجة لذلك فقال :

(أفغير الله تتقون) أى أبعد أن علمتم هذا ترهبون غير الله وتحذرون أن يسلبكم نعمة أو يوجب لكم أذى ، أو ينزل بكم نقمة إذا أتم أخلصتم العبادة لربكم ، وأفردتم الطاعة له ، وما لكم نافع سواه .

وإجمال ذلك — إنكم بعد أن عرفتم أن إله العالم واحد ، وعرفتم أن كل

ما سواه فهو في حاجة إليه في وجوده وبقائه ، كيف يعقل أن يكون لامرئ رغبة  
أو رهبة من غيره ؟

ولما بين أن الواجب ألا يتقى غير الله — ذكر أنه يجب ألا يشكر إلا  
هو فقال :

( وما بكم من نعمة فمن الله ) أى وما بكم من نعمة في أبدانكم من عافية وصحة  
وسلامة ، وفي أموالكم من نماء وزيادة ، فالله هو المنعم بها عليكم ، والمفضل بها  
لا سواه ، فبيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فيجب عليكم أن تشكروه على هذه  
النعمة المتواصلة ، وإحسانه الدائم الذى لا ينقطع .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

( ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ) أى ثم إذا أصابكم في أبدانكم سقم ومرض  
أو حاجة عارضة ، أو شدة وجهد في العيش ووسائل الحياة ، فإليه تصرخون بالدعاء  
وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم ، علما منكم أنه لا يقدر على إزالة ذلك إلا هو .

( ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يشركون ) أى ثم إذا  
وهب لكم ربكم العافية ، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض في أبدانكم ، أو شدة  
في معاشكم بتفريج البلاء عنكم إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في العبادة ،  
فيجدون الأوثان ، ويذبحون لها الذبائح ، شكرا لغير من أنعم بالفرج ، وأزال  
من الضر .

ونحو الآية قوله : ( وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ،  
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ) .

قال السيد الألوسى في تفسيره : وفي الآية ما يدل على أن صنيع العوام اليوم  
من الجوار إلى غير الله تعالى ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً — عند  
إصابة الضر بهم وإعراضهم عن دعائه تعالى بالكيفية — سفه عظيم وضلال جديد

لكنه أشد من الضلال القديم ، و مما تقشعر منه الجلود ، لحصوله ممن يؤمن باليوم الموعود .

إن بعض المشيخين قال لى وأنا صغير : إياك ثم إياك أن تستغيث بالله إذا خطب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجل فى إغاثتك ، ولا يهيمه سوء حالتك ، و عليك بالاستغاثة بالأولياء السالقين ، فإنهم يعجلون فى تفریح كربك ، و يهيمهم سوء ما حل بك ، فنج ذلك سمعى ، و همى دمعى ، و سألت الله تعالى أن يعصمى و المسالمين من أمثال هذا الضلال المبين ، و لكثير من المشيخين اليوم كلمات مثل ذلك اه .

( ليكفروا بما آتيناهم ) أى قيضنا لهم ذلك لتكون عاقبة أمرهم أن يحجدوا نعم الله عليهم ، وأنه هو المسدى لها ، وأنه هو الكاشف للنقم عنهم . و قد فعلوا ذلك لسوء استعدادهم و خبث طويتهم ، و بما ران على قلوبهم من الكفر و العصيان ، فحجدوا فضل الملك الديان ، و إحسان صاحب الطول و الإحسان .

ثم توعدهم على سوء صنيعهم و أبان لهم عاقبة أمرهم فقال :

( فتمتعوا فسوف تعلمون ) أى فتمتعوا فى هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم ، و تبلغوا الميقات الذى وقت لحياتكم و تتمتعكم فيها ، و بعدئذ ستصيرون إلى ربكم ، فتعلمون عند لقائه و بال ما كسبت أيديكم سوء مغبة عملكم ، و تندمون حين لا ينفع الندم .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ نَضِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَأْنٌ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُّمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ

فِي الثَّرَابِ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ  
مَثَلُ السُّوءِ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠).

### شرح المفردات

تفترون: أى تكذبون ، سبحانه: أى تنزيها له عن النقائص ؛ والبشارة فى أصل  
اللغة إلقاء الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن فهو حقيقة  
فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خص فى عرف اللغة بالخبر السار ، ويقال  
لمن لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والمرور استنار وجهه  
وأشرق ، والكظيم: المتلى غما وحزنا ؛ والكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه  
إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أى حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس ،  
ويتوارى: أى يستخفى ؛ وقد كان من عادتهم فى الجاهلية أن يتوارى الرجل حين  
ظهور آثار الطلق بامرأته ، فإن أخبر بذكر ابتهاج ، وإن أخبر بأذى حزن وبقى  
متواريا أياما يدبر فيها ما يصنع ، ويمسكه: أى يحبسه كقوله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)  
والهون: الهوان والذل ، ويدسه: أى يخفيه ، ومثل السوء: أى الصفة السوء ، وهى  
احتياجهم إلى الولد وكرهتهم للبنات خوف الفقر والعار ، والله المثل الأعلى: أى الصفة  
العليا وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه سخف أقوال أهل الشرك ، أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم  
التي تمجها الأذواق السليمة .

### الإيضاح

حكى سبحانه بعض قبائح المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام وعدد منها:  
(١) (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى ويجعل هؤلاء المشركون

للأنعام التي لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما مما خلق الله يتقربون به إليها ، وهذا إشراك منهم لما لا يعلمون منه الفائدة بالذي يعلمون أنه الذي هو خلقهم وهو الذي رزقهم وهو الذي ينفعهم وهو الذي يضرهم دون غيره ، وقد سبق تفصيل ذلك فيما حكى الله عنهم في سورة الأنعام بقوله: « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(تالله لتسألن عما كنتم تفترون) أي أقسم لأسألتكم عما افتريتموه واختلقتموه من الباطل ، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة تكون كفاء كفرانكم نعمي ، وافترائكم على ونحو الآية قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهذا السؤال إنما هو سؤال تأنيب وتقرير لهم على ما اجترحوا من أقوال وأفعال (٢) (ويجملون لله البنات سبجانه ولهم ما يشتهون) أي ولقد بلغ من جهل

هؤلاء المشركين وعظيم أباظلمهم أن افتروا على من خلقهم ، ودبر شؤونهم ، واستحق شكرهم على جزيل نعمائه — البنات فقالت خزاعة الملائكة بنات الله كما قال عز اسمه : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا » وعبدوها مع الله وقد أخطئوا في ذلك خطأ كبيرا وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ نسبوا إليه الأولاد ولا أولاد له ، وأعطوه منها أحسبها وهي البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، بل لا يرضون إلا البنين كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » وقال : « أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » .

والمراد من قوله ولهم ما يشتهون : أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ويأفنون من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال ابن عباس يقول : يجعلون لى البنات ، ترتضونهن لى ولا ترتضونهن  
لأنفسكم .

ثم أكد ما سلف بقوله :

( وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ) أى وإذا بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى ظل وجهه مسودا كئيبا من الهم تمتلئا غيظا وحنقا من شدة ما هو فيه من الحزن ، يتوارى من الناس خجلا واستحياء ، ولا يود أن يراه أحد من مساءته بما بشر بها ، ويدور بخلده أحد أمرين : إما أن يمسكها ويقيها بقاء ذلة وهوان فلا يورثها ولا يعنى بها بل يفضل الذكور عليها ، وإما أن يدسها فى التراب ويدفنها وهى حية ، وذلك هو الوأد المذكور فى قوله تعالى « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » .

ومعنى قوله ( ألا ساء ما يحكمون ) بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه ، فإنهم بالغوا فى الاستنكاف من البنت من وجوه :

(١) اسوداد الوجه .

(٢) الاختفاء من القوم من شدة نفرتهم منها .

(٣) إنهم يقدمون على قتلها ووأدها خشية العار أو خوف الجوع والفقر .

ثم جعل تذييلا لما تقدم قوله :

( للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ) أى للذين لا يصدقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين ، صفة السوء التى هى كالمثل فى القبح من حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم ، وتفضيلهم للذكور للاستظهار بهم ، ووأدهم للبنات خشية العار أو الفقر ، وذلك يرمى إلى العجز والقصور والشح البالغ أقصى غاية .

( والله المثل الأعلى ) أى وله تعالى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد المنزه عن الولد وأنه لا إله إلا هو ، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو المنيع تكبرا وجلالا لا يغلبه غالب ، الحكيم الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَّةً وَكَانُوا  
يُؤَخَّرُونَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً  
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسْنَتَهُمُ الْكُذِبَ  
أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ  
أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَنْ يَمْهَلَهُمْ فَهَوُوا وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي  
اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) .

### شرح المفردات

المراد من الناس: العصاة ، والأجل المسمى: يوم القيامة ، ويجعلون: يثبتون  
وينسبون إليه ، وما يكرهون: هى البنات ، وتصف أسنتهم الكذب: أى يكذبون ؛  
كما يقال عينها تصف السحر أى ساحرة ، وقدّها يصف الهيف أى هى هيفاء ،  
لاجرم: أى حقا ، مفراطون: أى مقدمون معجل بهم إليها من أفرطته إلى كذا أى  
قدمته ، ويقال لمن تقدم إلى الماء لإصلاح الدلاء والأرسان فارط وفرط ، وليهم:  
ناصرهم ومساعدهم ، اليوم: أى فى الدنيا .

### المعنى الجملى

لما حكى سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أعمالهم — بين هنا حمله  
بخلقه مع ظلمهم وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهارا لفضله ورحمته ، ولو أخذهم بما كسبت

أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فبظلمه وأما غيره فبشؤمه كما قال سبحانه : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » لكنه سبحانه يعلم ويستر ويُنظر إلى أجل مسمى ، ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يناله من أذى عشيرته بأن قومه ليسوا يبدع في الأمم فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فلنك بهم أسوة ، فلا يحزنك تكذيبهم ولا تبضع نفسك عليهم أسى وحسرة .

## الإيضاح

( ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ) أى ولو يؤاخذ الله عصاة بنى آدم بمعاصيهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .

أخرج البيهقي وغيره عن أبى هريرة أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال لا والله بل إن الحُبارى فى وكرها لتتوت من ظلم الظالم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل ( الجعران ) يهلك فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ الآية .

وأخرج أحمد عن أبى هريرة أنه قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره ثم قال إى والله زمن غرق قوم نوح عليه السلام .

( ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) أى ولكن بجله يؤخر هؤلاء الظالمة فلا يعاجلهم بالعتوبة إلى أجل سماه الله لعذابهم ، فإذا جاء الوقت الذى وقت لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا أعمارهم ، وقد تقدم نظير هذا .

( ويجعلون لله ما يكرهون ) أى وينسب هؤلاء المشركون إلى الله سبحانه ما يكرهون لأنفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة .

( وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ) أى ويكذبون فيما يدعون إذ يزعمون

أن لهم العاقبة الحسنى عند الله وهي الجنة على تقدير وجودها ، فقد روى أنهم قالوا :  
 إن كان محمد صادقاً في البعث فلنا الجنة بما نحن عليه ، فرد الله عليهم مقالهم بقوله :  
 ( لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ) أى حقاً إن لهم النار وليس بعد عذابها  
 عذاب ، وأنه معجل بها إليهم وهم مقدمون لها .

ثم بين سبحانه أن هذا الصنيع الذى صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم  
 السالفة فى حق أنبيائهم فقال مسلماً رسوله فيما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم .  
 ( تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم  
 ولهم عذاب أليم ) أى والله لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم بمثل ما أرسلناك به  
 إلى أمتك من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العباد له ، وخلع الأنداد والأوثان ،  
 فحسن لهم الشيطان ما كانوا عليه مقيمين من الكفر به وعبادة الأوثان ،  
 فكذبوا رسالهم وردوا عليهم ما جاءوا به من عند ربهم ، وما كان ناصرهم فيما  
 اختاروا إلا الشيطان وبئس الناصر والمعين ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم حين ورودهم  
 إلى ربهم ، إذ لا تنفعهم إذ ذاك ولاية الشيطان كما لم تنفعهم فى الدنيا .  
 ثم ذكر سبحانه أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أقام الحجة ، وأزاح  
 اللعلة فقال :

( وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم  
 يؤمنون ) أى وما أنزلنا عليك كتابنا وما بعثناك به إلى عبادنا إلا لتبين لهم  
 ما اختلفوا فيه من دين الله ، فيعرفوا الحق من الباطل ، وتقيم عليهم حجة الله التى  
 بعثك بها ، وهو هدى للقلوب الضالة ، ورحمة لقوم يؤمنون به فيصدقون بما فيه ،  
 ويقررون بما تضمنه من أمر الله ونهيه ويعملون به .

وخلاصة ذلك — إن هذا الكتاب هو الفاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه ،  
 وبأنه الهادى لهم إلى سبيل الرشاد .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩).

### شرح المفردات

المراد بحياة الأرض: إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر، يسمعون: أى يسمعون سماع تدبر وفهم . قال الفراء والزجاج : النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث ، ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد ، ورجحه ابن العربى فقال إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع والتأنيث إلى معنى الجماعة وقد جاء بالوجهين هنا وفى سورة المؤمنين ، والعبارة: الاعتبار والعظة ، والفرت: كثيف ما يبقى من الماء كقول فى الكرش والمعنى ، خالص: أى مصفى من كل ما يصحبه من مواد أخرى ، سائغا: أى سهل المرور فى الحلق ، يقال ساغ الشراب فى الحلق وأساغه صاحبه قال تعالى: «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ» والسكر: الخمر، والرزق الحسن: الخل والرُّبُّ والتمر والزبيب ونحو ذلك ، وأوحى : ألهم وعلم، وبيوتها: أى أوكارا؛ وأصل البيت مأوى الإنسان واستعمل هنا فى الوكر الذى تبنيه النحل لتعسل فيه لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة ، ويعرشون : أى يرفعون من الكروم والسقوف، والسبل: الطرق واحدها سبيل ، والذلل واحدها ذلول: أى

منقادة طائفة ، والشراب العسل ، مختلف ألوانه من أبيض إلى أصفر إلى أسود على حسب اختلاف المرعى .

### المعنى الجملى

بعد أن وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تنظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الإشراك بربهم ونسبة البنات إليه وافترائهم عليه ما لم ينزل به سلطانا — عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرحي في الدين الإسلامى وكل دين سماوى ، ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحميا به الأرض بعد موتها ، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثالث باتخاذ الحجر والنخل والدبس من الأعناب والتخيل ، وربّع باخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس ، وقد بين أثناء ذلك كيف أهتم النحل ببناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

### الإيضاح

( والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ) نبه سبحانه عباده إلى الحجج الدالة على توحيدده ، وأنه لا تنبغى الألوهية إلا له ، ولا تصلح العبادة لشيء سواه ، فبين أن ذلك المعبود هو الذى أنزل من السماء مطرا ، فأثبت به أنواعا مختلفة من النبات فى أرض ميتة يابسة ، لازرع فيها ولا عشب ، إن فى ذلك الإحياء بعد الموت لدليلا واضحاً ، وحجة قاطعة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته لمن يسمع هذا القول سماع تدبر وفهم لما يسمع ، إذ لا عبرة بسمع الأذان ، فهو أشبه بسمع الحيوان .

وبعد أن ذكر نزول الماء من السحاب ذكر خروج اللبن من الضرع ، وفيه أكبر الأدلة على قدرة القادر فقال :

( وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ) أى وإن لكم أيها الناس لعظة في الأنعام دالة على باهر قدرتنا ، وبداع صنعنا ، وواسع فضلنا ، ورحمتنا بعبادنا ، فإننا نسقيكم مما في بطونها من اللبن الخالص من شائبات المواد الغريبة ، السهل التناول ، اللذيذ الطعم ، وهو متولد من بين فرث ودم .

فإن الله جلت قدرته جعل الحيوان يتغذى بما يأكل من نبات واللحوم ونحوهما حتى إذا هضم الماء كحول ياذنه تعالى إلى عصارة نافعة للجسم وفضلات تطرد إلى الخارج ، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذى يسرى في عروق الجسم لحفظ الحياة وبعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التى فى الضرع فتحولها إلى لبن ، فكأن الصانع الحكيم جعلها مصنعا ومعملا لتحويل الدم إلى لبن ، وهكذا فى الجسم غدد أخرى كالغدد الأنفية للمخاط والغدد الدمعية للعين ، والغدد المنوية التى تحول الدم إلى مادة التلقيح .

وبعد أن ذكر اللبن وبين أنه جعله شرابا سائغا للناس ، ثلث بذكر ما يتخذ من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب فقال :

(ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) أى ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب مما تتخذونه خمرا وخلا ودبسا (عسل التمر) وتمر .

روى عن ابن عباس أنه قال : السكر ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما كالخل والزُّب (المربة) والتمر والزبيب ونحو ذلك . (إن فى ذلك آية لىقوم يعقلون) أى إن فى ذلك آية باهرة لمن يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات ويعتبرون بما يستخلص من العبر .

(وأوحى ربك إلى النحل) أى وألهم ربك النحل وألقى فى رُوعها ، وعلمها أعمالا يتخيل منها أنها ذوات عقول .

وقد تتبع علماء المواليد أحوالها وكتبوا فيها المؤلفات بكل اللغات ، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها ، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور :  
 (١) إنها تعيش جماعات كبيرة قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة ، وتسكن كل جماعة منها في بيت خاص يسمى خلية .

(٢) إن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو العسوب ، وهي أكبرهم جثة وأمرها نافذ فيهم ، وعدد يتراوح بين أربعمائة نحلة وخمسةائة يسمى الذكور ، وعدد آخر من خمسة عشر ألفا إلى خمسين ألف نحلة ، ويسمى الشغالات أو العاملات .

(٣) تعيش هذه الفصائل الثلاث في كل خلية عيشة تعاونية على أدق ما يكون نظاما ، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذى يخرج منه نحل الخلية كلها ، فهي أم النحل ، وعلى الذكور تلقيح الملكات وليس لها عمل آخر ، وعلى الشغالات خدمة الخلية وخدمة الملكات وخدمة الذكور ، فتنتقل في المزارع طوال النهار لجمع رحيق الأزهار ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا يتغذى به سكان الخلية صغارا وكبارا ، وتفرز الشمع الذى تبني به بيوتها سداسية الشكل تخزن في بعضها العسل ، وفي بعض آخر منها تربي صغار النحل ، ولا يمكن المهندس الخاذق أن يبني مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والقرجار (البرجل) . قال الجوهري : ألهمها الله أن تبني بيوتها على شكل سدس حتى لا يحصل فيه خلل ولا فرجة ضائعة ، كما عليها أن تتغلف الخلية وتحقق بأجنحتها لتساعد على تهويتها ، وعليها أيضا الدفاع عن المملكة وحراستها من الأعداء كالنمل والزنابير وبعض الطيور ، ثم فسّر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله :

( أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ) أى اجعلى لك بيوتا في الجبال تأوين إليها ، أو في الشجر أو فيما يعرش الناس ويننون من البيوت والسقف والكروم ونحوها .

(ثم كلى من كل الثمرات) أى ثم كلى أيتها النحل من كل ثمرة تشبهينها ، حلوة أو مرّة أو بين ذلك .

(فاسلكى سبل ربك ذللاً) أى فاسلكى الطرق التى أهدىك الله أن تسلكيها وتدخل فيها لطلب الثمار ولا تعسر عليك وإن توعدت ، ولا تضل عن العودة منها وإن بعدت .

وبعد أن خاطب النحل أخبر الناس بفوائدها لأن النعمة لأجلهم فقال :  
(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) أى يخرج من بطونها عسل مختلف الألوان ، فتارة يكون أبيض وأخرى أصفر ، وحيناً أحمر على حسب اختلاف المرعى .  
(فيه شفاء للناس) لأنه نافع لكثير من الأمراض ، وكثيراً ما يدخل في تركيب العقاقير والأدوية .

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال له رسول الله ( اسقه عسلاً ) فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال يا رسول الله : سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، قال ( اذهب فاسقه عسلاً ) فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً ) فذهب فسقاه عسلاً فبرىء .

وعلى هذا بعض الأطباء الماضين قال : كان لدى هذا الرجل فضلات فى المعدة ، فلما سقاه عسلاً تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره وهو فائدة لأخيه ، ثم سقاه فزاد التحلل والدفع ، وكما سقاه حدث مثل هذا حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرّة بالبدن ، فاستمسك بطنه ، وصالح مزاجه ، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده عليه السلام .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهى أمتي عن الكي » .

وقد أثبت الطب الحديث ما للعسل من فوائد أدع الكلام فيها ليتولى شرحها النطاسي الكبير المرحوم عبد العزيز إسماعيل باشا قال في كتابه : [ الإسلام والطب الحديث ] .

ما أصدق الآية الكريمة! « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » إن التركيب الكيماوي للعسل كما يلي :

من ٢٥ — ٤٠ ٪ دكستروز (جلوكوز) .

» ٣٠ — ٤٥ ٪ ليفيلوز .

» ١٥ — ٢٥ ٪ ماء .

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أى غذاء آخر ، وهو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالتم وبالحقن الشرجية وتحت الجلد وفي الوريد ، ويعطى بصفتته مقويا ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ من مواد خارجية كالزرنينخ والزئبق والذهب والكلورفرم والمورفين الخ ، وضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء الجسم مثل التسمم البولي والناشئ من أمراض الكبد ، والاضطرابات المعوية والمعوية ، وضد التسمم في الحميات ، مثل التيفويد والالتهاب الرئوي والسحائي الخبي والحصبة ، وفي حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة وفي احتقان الملح وفي الأورام الخبيبة الخ .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية مع أن كل أنواع الغذاء لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة .

فالحقيقة هي أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل كعلاج إلا فيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها في الغذاء فقط ، وهذه النواكه التي تشبه العسل في الطعم فإن

السكر الذى فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، وليس فيها إلا نسبة ضئيلة من ( الجلو كوز ) الذى هو أهم عناصر العسل .

وإذا علمنا أن الجلو كوز يستعمل مع الأنولين حتى فى حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكرى — علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ، ولكنه تنزيل من خلق الإنسان والنحل ، وعلم كلا منهما علاقته بالآخر اه .

### كيف يتكون العسل

تتمص الشغالة رحيق الأزهار ، فينزل ويجمع فى كيس فى بطنها ، وهناك يمتزج بعصارة خاصة فيتحول إلى عسل ، والله در أبى العلاء إذ يقول :

والنحل يجنى المر من زهر الربا فيعود شهدا فى طريق رضابه

ثم تعود النحلة إلى الخلية فتفرز العسل من فمها فى البيوت الشمعية التى خصصت بتخزين العسل ، وكلما امتلأ بيت منها غطاه النحل بطبقة من الشمع وانتقل إلى بيت آخر .

### شمع النحل

تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع تخرجها من بين حلقات بطنها ، ثم تمضعها فيها حتى تلين ، ويسهل تشكها على حسب ما تريد ، فتستعملها فى بناء بيوتها السداسية الشكل .

### فوائد النحل

- (١) نأخذ منها العسل الذى هو غذاء لذيذ الطعم يحوى مقدارا كبيرا من المواد المفيدة للجسم .
- (٢) نأخذ منها الشمع الذى تصنع منه شموع الإضاءة .

(٣) تساعد على تلقيح الأزهار فتكون سبباً في زيادة الثمار وجودة نوعها .  
 (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن في إخراج الله من بطون النحل  
 الشراب المختلف الألوان وهو شفاء للناس — لدلالة واضحة على أن من سخر  
 النحل ، وهداها لأكل الثمرات التي تأكلها ، وأتخاذها البيوت في الجبال والشجر  
 والعروش ، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس ، على أنه هو الواحد  
 القهار الذى ليس كمثل شىء ، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك ، ولا تصح  
 الألوهة إلا له .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يَردُّ إِلَى أَرذَلِ الْعُمُرِ  
 لِكَي لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ  
 بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى  
 مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ  
 لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ  
 وَرِزْقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ هُمْ  
 يَكْفُرُونَ (٧٢)

### شرح المفردات

أردل العمر : أردؤه وأخسه؛ يقال رذل الشىء يرذل رذالة وأردله غيره قال تعالى  
 حكاية عما قاله قوم شعيب له : « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ » والحفدة : أولاد الأولاد على  
 ما روى عن الحسن والأزهرى وواحدهم حافد ككتبة وكاتب: من الحفد وهو الحفدة  
 فى الخدمة والعمل ؛ يقال منه حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا : إذا أسرع كما جاء

في القنوت ( وإليك نسعى ونحفد ) والطيبات : اللذائذ ، والمراد بالباطل : منفعة الأصنام وبركتها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان ، وما فيها من نعمة للإنسان ؛ كالأنعام التى يتخذ من ضرعها اللبن والنحل التى يشتار منها العسل ويؤخذ منها الشمع للإضاءة - أردف ذلك ببيان أحوال الناس ، فذكر مراتب أعمارهم وأن منهم من يموت وهو صغير ، ومنهم من يُعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ويصير نساءً لا يحفظ شيئاً ، وفى ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانته ، ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم . وهى تفضيل بعضهم على بعض فى الرزق ، فقد يرى أ كيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا وقلّ أن يتيسر له ، بينما ترى أقل الناس علماً وفهماً تتفتح له أبواب السماء ويأتيه الرزق من كل صوب ، وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال الشافعى رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم ثلث بذكر نعمة نالته عليهم ، إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة ورزقهم المظعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة ، أو من الحيوان على اختلاف أنواعها .

## الإيضاح

( والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ) أى والله أوجدكم ولم تكونوا شيئاً أتم ولا أهلكم التى تعبدونها من دون الله ، ثم وقت أعماركم بأجال مختلفة فمنكم من تعجل وفاته ، ومنكم من يهرم ويصير إلى أرذل العمر وأخسه ، فتنقص قواه

وتفسد حواسه ويكون في عقله وقوته كالطفل كما قال : « وَمَنْ نَعَمَّرَهُ نَكَّسَهُ فِي الْخَلْقِ » .

أخرج البخارى وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه : « أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة الحيا والممات » وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر ، ونقل عن علي كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وهذا ليس بالمطرود ولا بالكثير .

(لكن لا يعلم من بعد علم شيئا) أى إنمارده إلى أرذل العمر ليعود جاهلا كما كان حين طفولته وصباه لا يعلم شيئا مما كان يعلمه في شبابه ، لأن الكبير قد أضعف عقله وأنساه ، فلا يعلم شيئا مما كان يعلم ، وقد انسلخ من عقله بعد أن كان كامل العقل . وخلاصة ذلك — إنه يكون نساء ، فإذا كسب علما فى شيء لم يلبث أن ينساه ويحول من ساعته ، فيقول لك من هذا ؟ فتقول له هذا فلان ، فلا يمكث إلا هنيهة ثم يسألك عنه مرة أخرى .

(إن الله عليم قدير) أى إن الله عليم بكل شيء ، فيعلم وجه الحكمة فى الخلق والتوفى والرد إلى أرذل العمر ، ولا ينسى شيئا من ذلك ، وهو قدير على كل شيء . فلا يعجزه شيء أراد .

ومجمل القول — إن ما يعرض فى الهرم من ضعف القوة والقدرة وانتفاء العلم يتنزه عن مثله المولى جل شأنه ، فهو كامل العلم تام القدرة لا يتغير شيء منهما بمرور الأزمنة كما يتغير علم البشر وقدرتهم .

ولما ذكر سبحانه تفاوت الناس فى الأعمار ذكر تفاوتهم فى الأرزاق فقال :  
( والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ) أى والله تعالى جعلكم متفاوتين فى أرزاقكم ، فمنكم الغنى ومنكم الفقير ، ومنكم المملوك ومنكم المالك ، وأعطاكم من الرزق أكثر مما أعطى ممالئكم ، ولم يجعل ذلك بحسن الخيلة وفضل العقل ، فكثيرا

ما نرى الحَوْلَ القَلْبَ لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهد ، بينما نرى الأحق يتقلب في نعيم العيش وزخرف الدنيا ، والله درّ سفيان بن عيينة إذ يقول :

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِي قَلْبِهِ مَهْدَبُ الرَأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مَنْحَرَفٌ  
وَمِنْ ضَعِيفٍ ضَعِيفُ الْعَقْلِ مَخْتَلَطٌ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرَفُ

( فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء ) أى  
فما الذين فضلوا بالرزق وهم الموالى بجاعلى رزقهم من الأموال وغيرها - شركة بينهم  
وبين ممالئهم بحيث يساؤونهم فى التصرف فيها ويشاركونهم فى تديرها .

والخلاصة - إن الله جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أكثر مما رزق  
ممالئكم وهم بشر مثلكم وإخوانكم ، فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم  
وتساواوا وإياهم فى اللبس والمطعم والمسكن ، لكنكم لم ترضوا بهذه المساواة مع أنهم  
أمثالكم فى البشرية والخلقوية لله عز وجل ، فما بالكم تشركون بالله فيما يليق إلا  
به من الأوهية والمعبودية بعض عباده بل أخس مخلوقاته .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لبيان قببح ما فعله المشركون من عبادة الأصنام  
والأوثان تقرىعا لهم .

ونحو الآية قوله : « هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا  
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ؟ » .

( أفبنيمة الله يمجحدون ؟ ) إذ أضافوا بعض تلك النعم الفائضة عليهم من مولاهم  
إلى شركائهم وجعلوها أندادا لله ، وهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

ثم ذكر ضريا آخر من ضروب نعمه على عباده تنبئها إلى جليل إنعامه بمثل  
تلك النعم التى هى زينة الحياة فقال :

( والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة )  
أى والله سبحانه جعل لكم أزواجا من جنسكم تأتون بهن وتقوم بهن جميع مصالحكم

وتدبير معاشكم ، وجعل لكم منهن بنين وحفدة أى أولاد وأولاد يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضرراء .

(ورزقكم من الطيبات ) أى ورزقكم من لذيذ الطعام والمشارب وجميل الملابس ، والمساكن مما تتذوقون فيه إلى أقصى الحدود وأبلغ الغايات .

(أفبالباطل يؤمنون ) أى إنهم بعد هذا البيان الواضح والدليل الظاهر يقولون بأن الأصنام شركاء لهم تنفعهم وتضرهم وتشفع لهم عنده ، وأن البحائر والسوائب والوصائل حرام عليهم كما حرمها لهم أولياء الشيطان .

وليس بعد هذا تأنيب وتوبيخ ، إذ ساقه مساق ما فيه الشك وطلب الجواب منهم عنه .

( وبنعمة الله هم يكفرون؟ ) أى وبهذه النعم المتظاهرة عليهم من ربهم يكفرون ، فيضيفونها إلى غير الخالق وينسبونها إلى غير موجدتها من صنم أو وثن؟ .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَضِيئُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ  
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى  
شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ  
يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا  
رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا  
يُوجَّهْ لَا يَتَّبِعُهَا خَيْرٌ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

## شرح المفردات

رزق السماء : هو المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التي تخرج منها ، فلا تضر بوا لله الأمثال : أى لا تجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : « فَلَا تَجْمَعُوا لِلَّهِ أَدَادًا » وضرب المثل للشيء : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المهمة ويزيل ما عرض من الشك في أمره ، والبكم إما ناشئ من صمم خلق وإما لسبب عارض ولا علة في أذنيه فهو يسمع لكن لسانه معتقل لا يطبق الكلام ، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم ، لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له ، وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعيا ، فإن بعض البكم لا يكونون صمما ، والكَلْ : الغليظ الثقيل من قولهم كَلَّتِ السككين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكل عن الأمر: ثقل عليه فلم يستطع عمله يوجهه : أى يرسله في وجه معين من الطريق ، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ، على صراط مستقيم : أى طريق عادل غير جائر .

## المعنى الجملى

بعد أن بين عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف - أردف ذلك بالرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتهما: أولهما العبد المملوك الذى لا يقدر على شيء ، والحر الكريم الغنى الكثير الإفاق سرا وجهرا ، ولقت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية ؟ وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال ، والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضرر . والثانى مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده ، والثانى حوّل قلبه ناطق كامل القدرة ، أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟ وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجاد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟.

قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد ابن أبي العاص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة وكان الآخر ينهيه عن الصدقة والمعروف .

## الإيضاح

( ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون ) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أو نانا لا يملك لهم رزقا من السموات ، فلا تقدر على إنزال القطر منها لإحياء الميت من الأرضين ، ولا يملك لهم رزقا منها فلا تقدر على إخراج شيء من نباتها ولا ثمارها ، ولا على شيء مما ذكر في سالف الآيات مما أنعم الله به على عباده ، ولا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يملكونهم .

وفائدة قوله ( ولا يستطيعون ) أن من لا يملك شيئا قد يكون فى استطاعته أن يتملكه بوجه ، فبين بذلك أن هذه الأصنام لا تملك وليس فى استطاعتها تحصيل الملك . وبعد أن بين ضعفها وعجزها رتب على ذلك ما هو كالنتيجة له فقال : ( فلا تضر بوا الله الأمثال ) أى فلا تجعلوا لله مثلا ولا تشبهوه بخلقه ، فإنه لا مثل له ولا شبيهه .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : أى لا تجعلوا معى إلها غيرى فإنه لا إله غيرى .

ثم هددهم على عظيم جرمهم وكبير ما اجترحوا من الكفر والمعاصى فقال : ( إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ) أى إن الله يعلم كنه ما تفعلون من الاجرام وعظيم الآثام وهو معاقبكم عليه أشد العقاب ، وأنتم لا تعلمون حقيقته ولا مقدار عقابه ، ومن ثم صدر ذلك منكم وتجاسرتم عليه ونسبتم إلى الأصنام ما لم يصدر منها ولا هى منه فى قليل ولا كثير .

وبعد أن نهام عن الإشرارك عقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبه من الحماقات والجهالات فقال :

( ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستون ) أى إن مثلكم فى إشراكم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وحر مالك ما لا ينفق منه كيف يشاء ويتصرف فيه كما يريد ، والفطرة الأولى تشهد بأنهما ليسا سواء فى التجارة والاحترام مع استوائهما فى الخلق والصورة — فكذلك لا ينبغي لعاقل أن يسوى بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على شيء البتة .

ثم ذكر ما هو كالتيجة لما سلف فقال :

( الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ) أى الحمد الكامل لله خالصا دون ماتدعون من دونه من الأوثان ، فإياه فاحمدوا دونها ، ما الأمر كما تفعلون ولا القول كما تقولون ، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتحمد عليه ، إنما الحمد لله ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك ، فهم بجهاهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء فى العبادة والحمد .

ثم ضرب مثلا آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح فقال :

( وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟ ) أى ضرب الله مثلا لنفسه والآلهة التى يعبدونها من دونه مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يفهم ولا يفهم ، لا يقدر على شيء مما يتعلق بنفسه أو بغيره لسوء فهمه وإدراكه ، وهو عيال على من يعوله وبلى أمره ، حيثما يرسله مولاه فى أمر لا يأت

بنجح ولا كفاية مهم — وثانيهما رجل سليم الخواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره ،  
يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قويم — هل يستويان ؟  
كذلك الصنم لا يسمع شيئاً ولا ينطق لأنه إما خشب منحوت وإما نحاس  
مصنوع لا يقدر على نفع من خدمه ولا دفع ضرر عنه ، وهو كل على من يعبده ،  
يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه ، وهو لا يعقل ما يقال له فيأتمر بالأمر ، ولا ينطق  
فيأمر وينهى ، هل يستوى هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار  
الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته ! وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم  
لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَأَنَّمْ حَرَجَ الْبَصَرِ  
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ  
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ  
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ  
فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ  
يُؤْمِنُونَ (٧٩)

### شرح المفردات

الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما  
فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ولمح : البصر رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى  
أسفلها ، والأفئدة واحدها فؤاد وهي القلوب التي هيأها الله لهمم وإصلاح البدن ،  
والجو : الهواء بين الأرض والسما .

## المعنى الجملى

بعد أن مثل سبحانه نفسه بمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، ومستحيل أن يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة — أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس لإله ، وبما يدل على كمال قدرته. فذكر أن قيام الساعة في السرعة ككلح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده وأنه الفاعل المختار، فذكر منها خلق الإنسان في أطواره المختلفة ، ثم الطير المسخر بين السماء والأرض ، وكيف جعله يطير بجناحين في جو السماء ما يمسكه إلا هو بكامل قدرته .

## الإيضاح

( والله غيب السموات والأرض ) أى والله علم ما غاب عن أبصاركم في السموات والأرض مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يطلعه الله ، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين التي لا سبيل إلى إدراكها حسا ولا إلى فهمها عقلا .  
( وما أمر الساعة إلا ككلح البصر أو هو أقرب ) أى وما شأنها في سرعة الحجب إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من هذا وأسرع ، لأنه إنما يكون بقول ( كن فيكون ) .

ونحو الآية قوله « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى فيكون ما يريد كطرف العين ، وقريب من هذا قوله « مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَعْتُسْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

والخلاصة — إن قيام القيامة ومجيء الساعة التي ينتشر فيها الخلق للوقوف في موقف الحساب — كمنظرة من البصر وطرفة من العين في السرعة .

وخص قيام الساعة من بين الغيوب ، لأنه قد كثرت فيه الممارسة في جميع

الأزمنة والمصور، ولدى كثير من الأمم، فأنكره كثير من البشر وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات .

ثم ذكر ما هو كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها فقال :  
( إن الله على كل شيء قدير ) أى إن الله قادر على ما يشاء ، لا يمتنع عليه شيء ، وأراد ، فهو قادر على إقامتها فى أقرب من لمح البصر .

ثم ذكر سبحانه منته على عباده بإخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال :

( والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ) أى والله جعلكم تعلمون ما لا تعلمون بعد أن أخرجكم من بطون أمهاتكم ، فرزقكم عقولاً تفقهون بها وتميزون الخير من الشر والهدى من الضلال والخطأ من الصواب ، وجعل لكم السمع الذى تسمعون به الأصوات ، فيفقه بعضهم عن بعض ما تتجاوزون به بينكم ، والأبصار التى تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بعضها من بعض ، والأشياء التى تحتاجون إليها فى هذه الحياة ، فتعرفون السبل وتسلكونها للسعى على الأرزاق والسلم لتختاروا الجيد وتتركوا الردى ، وهكذا جميع مرافق الحياة ووجوهها .

( لعلكم تشكرون ) أى رجاء أن تشكروه باستعمال نعمه فيما خلقت لأجله ، وتتمكنوا بها من عبادته تعالى ، وتستعينوا بكل جارحة وعضو على طاعته .

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألتى لأعطيته ، ولئن دعانى لأجيبته ، ولئن استعاذنى لأعيدته ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت

وأكره مساءته ، ولا بد له منه « أى إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى لما شرعه الله له ، ولا يبسط ولا يمشى إلا فى طاعته عز وجل ، مستمعينا به فى ذلك كله .

ثم نبه عباده إلى دليل آخر على كمال قدرته فقال :

( ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ) أى ألم ينظروا إلى الطير مذلللات فى الهواء بين السماء والأرض ما يمسكهن فى الجوع عن الوقوع إلا الله عز وجل بقدرته الواسعة ، وقد كان فى ثقل جسدها ، ورقة الهواء ما يقتضى وقوعها إذ لالعلاقة من فوقها ، ولا دعامة من تحتها ، ولو سلبها ما أعطاها من قوة الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعا ، وقد كان العلماء قديما يعلمون تخلخل الهواء فى الطبقات العالية فى الجوهى نظرية لم تدرس فى العلوم الطبيعية إلا حديثا ، فقد أشرعن كعب الأحبار أنه قال : إن الطير يرتفع فى الجوائى عشر ميلا ولا يرتفع فوق ذلك .

( إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ) أى إن فى ذلك التسخير فى الجو والإمساك فيه — لدلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه لاحظ للأوثان والأصنام فى الألوهية — لمن يؤمن بالله ، ويقر بوجودان ماتعينه أبصارهم ، وتحسه حواسهم .

وخصص هذه الآيات بالمؤمنين ، لأنهم هم المنتفعون بها ، وإن كانت هى آيات

لجميع العقلاء .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَمَاتًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا مِمَّا خَاقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ،

وَسَرَّابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لِمَلَأَكُم  
تُسَلِّمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ  
اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

### شرح المفردات

سكننا أى مسكننا ، والظمن (بالسكون والفتح) السير فى البادية لِنَجْمَةٍ أو طلب  
ماء أو مرتع ، والأصواف : للضأن ، والأوبار : للابل ، والأشعار : للعز ، والأثاث :  
متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ، ولا واحد له من لفظه ، والمتاع : ما يتمتع  
وينتفع به فى المتجر والمعاش ، إلى حين : أى إلى انقضاء آجالكم ، والظلال : ما يستظل  
به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، والأكنان واحدها كن : وهو الغار ونحوه  
فى الجبل ، والسراييل واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتان والصوف  
وغیرها ، وسراييل الحرب الجواشن والدروع ، والبأس : الشدة ، ويراد به هنا الحرب.

### المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده . قفى على ذلك بذكر ما أنعم به على  
عباده ، فجعل لهم بيوتاً يأوون إليها وتكون سكناً لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام  
بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياماً فى السفر والحضر ، وجعل لهم  
فى الجبال الحصون والمعقل ، وجعل لهم الثياب التى تقيهم الحر ، والدروع والجواشن  
من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا — إنه امتن على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : وجعل  
لكم من بيوتكم سكناً ، ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام  
يقوله : وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ، ثم بمن لا قدرة لهم على ذلك ولا يأويهم

إلا الظلال بقوله ، وجعل لكم مما خلق ظللا ، ثم بما لا بد منه لكل أحد بقوله :  
وجعل لكم سرايل الخ ، ثم بما لا غنى عنه في الحروب بقوله : . وسرايل  
تقيمكم بأسكم .

## الايضاح

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) أى والله الذى جعل لكم من بيوتكم التى  
هى من الحجر والمدر مسكنا تقيمون فيه وأنتم فى الحضرة .

(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)  
أى وجعل لكم قبابا وفساطيط من شعر الأنعام وأصوافها وأوبارها ، تستخفون حملها  
يوم ترحالكم من دوركم وبلادكم وحين إقامتكم بها

(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) أى وجعل لكم من  
أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا لبيوتكم تكتسبون به وتستعملونه  
فى الغطاء والقراش ، ومتاعا من مال وتجارة إلى أجل مسمى ، وهو حين  
انقضاء آجالكم .

(والله جعل لكم مما خلق ظللا) أى ومن نعمه تعالى عليكم أن جعل لكم  
مما خلق من الأشجار وغيرها ظللا تستظلون بها من شديد الحر .

(وجعل لكم من الجبال أكنانا) أى وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنون  
فيها كالمغارات والكهوف ونحوها .

(وجعل لكم سرايل تقيم الحر) أى وجعل لكم ثيابا من القطن والكتان  
والصوف ونحوها تقيم الحر الشديد الذى فى بلادكم وهو مما يذيب دماغ الضب حين  
حمارة القيظ .

(وسرايل تقيمكم بأسكم) أى وجعل لكم دروعا وجواشن تقيمكم بأس السلاح  
وأذاه حين الحرب وحين يتقدم القرن إلى قرنه للمصاولة والظعن والضرب والرمى بالنبال .

تنبه — لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل ألزم ذكر هذا في معرض النعم العظيمة ، إلى أن ما يبق من الحريق من البرد أيضا فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر ، قال الشهاب الخفاجي في الريحانة : في الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا عليها وهي أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ، ثم إن ما يبق الحري يحصل به برودة في الهواء في الجملة ، فوقاية الحر إنما هي لتحصيل البرد ، وهذا فيه من اللطف ما هو أطف من النسيم ، فله درالتنزيل فكم فيه من أسرار لا تنهاه ا هـ .

( كذلك يتم نعمته عليكم ) أى كما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم ، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ويجعلكم ملوكا وأمراء فيما تفتحون من البلاد والأصقاع ويجعل رائدكم فيما تعملون وجه الله وإصلاح الأمم والشعوب كما قال : « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

( لعلمكم تسامون ) أى توقعوا للنظر فيما أسبغ عليكم من النعم ، فتعرفون حق النعم بها فتؤمنون به وحده وتذرون ما أتمم به مشركون فتسامون من عذابه ، فإن العاقل إذا أسدى إليه المعروف شكر من أنعم به عليه كما قال المتنبي :

وقيدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

وبعد أن عدد ما أنعم به عليهم من النعم ذكر ما يتبع معهم إذا هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ولم تنفعهم الذكري فقال :

( فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ) أى فإن استمروا على إعراضهم فلم يقبلوا ما أتى إليهم من البينات فلا يضيرك ذلك ، ولا تبغ نفسك عليهم أسى وحسرة ، فإنك قد أديت رسالتك كاملة غير منقوصة ، وما هى إلا البلاغ الموضح لمقاصد الدين وبيان أسراره وحكمه ، وقد فعلته بما لا مزيد عليه .

وجملة القول — إنهم إن أعرضوا وتولوا فليست بقادر على خلق الإيمان فى قلوبهم .  
فإنما عليك البلاغ فحسب .

ثم بين أن سبب هذا التولى والإعراض لم يكن الجهل بهذه النعم بل كان العتو والاستكبار والإنكار لها فقال :

(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أى إنهم يعرفون أن هذه النعم كلها من الله ثم هم ينكرونها بأفعالهم ، إذ لم يخصوا النعم بها بالعبادة والشكر ، بل شكروا غيره معه ، إذ قالوا إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعاة هذه الأصنام .

(وأكثرهم الكافرون ) أى إن أكثرهم جاحد معاند يعلم صدق الرسول ولا يؤمن به عتوا واستكبارا ، وقليل منهم كان يجهل صدقه ولم يظهر له كونه نبيا حقا من عند الله ، لأنه لم ينظر فى الأدلة النظر الصحيح الذى يؤدى إلى الغاية ، أو لم يعرف الحق لنقص فى العقل فهو لا يسلك سبيله ، أو لم يصل حد التكليف فلا تقوم عليه حجة .

وهذا من صادق أحكام القرآن على الأمم والشعوب ، فهو لا يرسل القول إرسالا بل يزنه بميزان الحقيقة الواقعة التى لا تجانف الصواب وليس فيها جور ولا ظلم .

وَيَوْمَ نَبَعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا  
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ  
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا  
هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ  
لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ  
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ  
تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٨٩)

## شرح المفردات

الأمّة: الجليل من الناس، وشهيد كل أمة نبيها، ثم لا يؤذن للذين كفروا: أى  
إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم، ويقال استعته وأعتبه: إذا رضى عنه، قال الخليل:  
العتاب مخاطبة الإذلال ومذاكرة الموحدة؛ وعاتبه معاتبه وعتابا وأعتبه: سره بعد  
ما ساءه، ينظرون: أى يمهلون ويؤخرون، والشركاء: الأصنام والأوثان والشياطين  
والملائكة، وندعو: نعبد، والسلم: الاستسلام والالتقياد، وضل: ضاع وبطل  
والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل وغيرهم إلى يوم القيامة، وتبيانا: أى  
بياناً لأمور الدين إمانصاً فيها أو بيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين في كل عصر.

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هؤلاء المشركين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها - قفى على  
ذلك بوعيدهم فذكر حالهم يوم القيامة، وأنهم يكونون أذلاء لا يؤذن لهم فى الكلام  
لتبئرة أنفسهم ولا يمهلون، بل يؤخذون إلى العذاب بلا تأخير، وإذا رأوا معبوداتهم  
من الأصنام والأوثان والملائكة والآدميين قالوا هؤلاء معبوداتنا، فسكذبهم تلك  
المعبودات واستسلموا لربهم وانقادوا له وبطل ما كانوا يفترونه، ثم ذكر ذلك اليوم  
وهو له وما منح نبيه من الشرف العظيم وأنه أنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما أشكل  
عليهم من مصالح دينهم ودنياهم، ويهدهم سواء السبيل وفيه البشرى للمؤمنين  
بجنات النعيم.

## الإيضاح

( ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ) أى وخوف أيها الرسول هؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهدا عليها بما أجابت داعى الله وهو رسولها الذى أرسل إليها ، إما بالإيمان وطاعة الله ، وإما بالكفر والعصيان .

( ثم لا يؤذن للذين كفروا ) أى ثم لا يسمع كلام الكافرين بعد شهادة أنبيائهم ولا يلتفت إليه ، إذ فى تلك الشهادة ما يكفي للفصل فى أمرهم والقضاء عليهم ، والله عليم بما كانوا يفعلون ، ولكن فى تلك الشهادة تأنيب لهم وتوبيخ على ما اجترحوا من الفسوق والعصيان والكفر بربهم الذى أنعم عليهم :

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

( ولا هم يستعتبون ) أى ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم أى غضبه بالتوبة وصالح العمل ، فالآخرة دار جزاء لادار عمل ، والرجوع إلى الدنيا بما لا يكون بحال .

( وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ) أى وإذا عاين هؤلاء الذين كذبوا وجحدوا بنبوّة الأنبياء وهم من كانوا على نهج قومك من المشركين - عذاب الله فلا ينجيهم منه شيء ، إذ لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذرون ، فيخفف عنهم بهذا العذر الذى يدعون ، ولا يرجئون بالعقاب ، لأن وقت التوبة والإجابة قد فات ، وإنما ذاك وقت الجزاء على الأعمال : « قَمَنَ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ونحو الآية قوله : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » وقوله : « إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ، وَإِذَا أَلْقَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ، لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » ، الثبور : الهلاك .

ثم أخبر عن إلقاء المشركين تبعه أعمالهم على معبوداتهم فقال :

( وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ) أى وإذا رأى هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والآلهة التى عبدوها - قالوا هؤلاء شركاؤنا فى الكفر بك ، والذين كنا ندعوهم آلهة من دونك ، وربما يكونون قد قالوا هذه المقالة طمعا فى توزيع العذاب بينهم ، أو إحالة الذنب على الشركاء تعلقا بذلك واسترواحا مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الفريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه .

ثم ذكر تبرأ آلهتهم منهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى نصرتهم لو كانوا ينصرون .

( فآلئوا إليهم القول إنكم لكاذبون ) أى قالت لهم الآلهة : كذبتهم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » وقوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

( وألقوا إلى الله يومئذ السلم ) أى واستسلم العابد والمعبود لله ، فلا أحد إلا وهو سامع مطيع ، ونحو الآية قوله : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا » أى ما أسمعهم وأبصرهم حينئذ ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا » وقوله : « وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » أى خضعت واستسلمت .

( وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه افتراء على

الله ، فلا ناصر ولا معين ولا شفيع ولا ولى مما كانوا يزعمونه فى الدنيا كما قال حكاية عنهم : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » .

( الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا

يفسدون) أى الذين جحدوا نبوتك وكذبوك فيما جتتهم به من عند ربك ، وصدوا عن الإيمان بالله ورسوله من أراده ، زدناهم عذابا فوق عذابهم الذى يستحقونه . بكفرهم ، بسبب استمرارهم على الإفساد بالصد عن سبيل الله .

وخلاصة ذلك — إنهم يعذبون عذابين: عذابا على الكفر، وعذابا على الإضلال . وصد الناس عن اتباع الحق ، ونحو الآية قوله : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أى وهم ينهون الناس عن اتباعه ، وهم يتعدون منه أيضا ، روى الحاكم والبيهقى وغيرهم عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل النار إذا جزعوا من حرها استغاثوا بضعضاح فى النار ، فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنهن البغال الدم ، وأفاع كأنهن البخاتي (أنواع من ضخام الإبل) تضر بهم فذلك الزيادة » .  
وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم فيها .

ثم خاطب سبحانه عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فقال :  
ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أى واذا ذكر أيها الرسول ذلك اليوم وهوله يوم يبعث الله نبي كل أمة شاهدا عليهم ، فيكون أقطع للمعذرة ، وأظهر فى إتمام الحججة عليهم ، وجئنا بك شهيدا على أمتك الذين أرسلتكم إليهم ، بما أجاوبك وبما عملوا فيما أرسلتكم به إليهم .  
وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسبك » فقال ابن مسعود فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)  
أى ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيانا لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة

الحلال والحرام والثواب والعقاب ، وهدى من الضلالة ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهييه ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، وبشرى لمن أطاع الله وأتاب إليه بجزيل الثواب في الآخرة وعظيم الكرامة .

ووجه ارتباط هذا بما قبله بيان أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك ، سائلك يوم القيامة عن ذلك كما قال : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » وقال « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه وسائلك عن أداء ما فرض عليك .

وتبيان القرآن لأمر الدين إما مباشرة وإما ببيان الرسول ، وقد أمرنا باتباع هذا البيان فى قوله « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله « لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إني أوتيت القرآن ومثله معه » وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » وقد كان قال الرسول صلى الله عليه وسلم فاجتهد الأمة ووطنوا طرق البحث فى أمور الدين لمن بعدهم ، واستنبطوا من الكتاب والسنة مذاهب وآراء فى العبادات ومعاملات الناس بعضهم مع بعض ، ودونوا تشريعا ينهل منه المسلمون فى كل جيل ، ويرجع إليه القضاة ليحكموا بين الناس بالعدل ، وكان أجل تشريع أخرج للناس كما اعترف بذلك أرباب الديانات الأخرى ومن لم يتدين منهم بدين .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَقْضُوا الْآعَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي  
 تَقَضَتْ عُزْلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ  
 أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ أُمَّةً  
 وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ  
 تَعْمَلُونَ (٩٣)

### شرح المفردات

العدل لغة : المساواة فى كل شىء من غير زيادة ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير ،  
 والمراد به هنا المكافأة فى الخير والشر ، والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر  
 بالعفو عنه ، وإيتاء ذى القربى : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، والفحشاء :  
 ما قبح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة  
 ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، والمنكر : ما تنكره العقول من دواعى القوة  
 الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، والبغى : الاستعلاء على  
 الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، والوعظ : التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد ،  
 والعهد : كل ما يلتزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ونقض اليمين : الخنث فيها  
 وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، وتوكيدها : توثيقها والتشديد فيها ، كقيل :  
 أى شاهدا ورقيبا ، والغزل : ما غزل من صوف ونحوه ، والقوة : الإبرام والإحكام ،  
 والأنكاث ، واحدهما نكت ، وهو ما ينكت قتله وينقض بعد غزله ، والدخل : المكر  
 والخديعة . وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، ويراد به أن يظهر  
 الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، أربى : أى أكثر وأوفر عددا .

## المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه في الوعد للمتقين والوعيد للكافرين ، وعاد وكررى الترغيب والترهيب إلى أقصى الغاية ، أردف ذلك بذكر هذه الأوامر التي جمعت فضائل الأخلاق والآداب وضروب التكليف التي رسمها الدين وحث عليها لما فيها من إصلاح حال النفوس ، وصلاح حال الأمم والشعوب ، ثم ضرب الأمثال لمن يحمدها عنها وينفر من فعلها .

ثم أبان أن أمر الهداية والإضلال بيد الله ، والله قد قدره على حسب استعداد النفوس للصلاح والنعوة ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « أعظم آية في كتاب الله تعالى : الله لا إله إلا هو الحي القيوم » وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل « إن الله يأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وأكثر آية في كتاب الله تفويضا « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وأشد آية في كتاب الله رجاء « يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » وعن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد ابن المغيرة هذه الآية فقال له يابن أخى أعد على فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له الخلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقوله البشر .

وأخرج البيهقى في شعب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية « إن الله يأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » الآية ثم قال إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئاً إلا جمعه وزجر عنه .

قال الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال : بلغ أكرم بن صيفى مخرج النبی صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه ، قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه ، فانتدب رجلاً فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكرم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، قال ثم تلا عليهم : إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية .

قالوا ردّد علينا القول فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكرم فقالا أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطاً فى مضر ، وقد رعى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعنا أكرم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوساً ولا تكونوا فيه أذناناً ، وكونوا فيه أولاً ، ولا تكونوا فيه آخراً .

وقال سعيد بن جبير عن قتادة فى قوله ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان ) الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعمون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، وإمّا نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

## الإيضاح

( إن الله يأمر بالعدل والإحسان ) أى إن الله يأمر فى هذا الكتاب الذى أنزله إليك أيها الرسول بالعدل والإنصاف ، ولا نصفة أجل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه ، والشكر له على إنضاله ، وحده وهو أهل للحمد ، ومنع ذلك عن ليس له بأهل ، فالأوثان والأصنام لا تستحق شيئاً منه ، فمن الجهل عبادتها وحدها

وهي لا تنعم فتشكر ، ولا تنفع فتعبد ، ومن ثم وجب أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : دعاني عمر بن العزيز فقال : صف لي العدل ، فقلت بسخ سألته عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً ، والمثل منهم أخا ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين .

وأخرج البخاري في تاريخه أن علي بن أبي طالب مرّ بقوم يتحدثون ، فقال فيم أنتم ؟ فقالوا ننذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول : إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فالعدل الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، فما بقي بعد هذا ؟ .

وأعلى مراتب الإحسان الإحسان إلى المسيء ، وقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عن الشعبي أنه قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . وقد صح من حديث ابن عمر في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

( وإيتاء ذى القربى ) أى وإعطائهم ما تدعو إليه الحاجة ، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام وترغيب في التصدق عليهم ، وهذا وإن دخل فيما سلف من الإحسان — فقد خصص للاهتمام به والعناية بشأنه .

وبعد أن ذكر الثلاثة التي أمر بها أتبعها بالثلاثة التي نهى عنها فقال :

( وينهى عن الفحشاء ) وهي الغلو في الميل إلى القوة الشهوانية كالزنا وشرب الخمر والسرقه والطمع في مال الناس .

( والمنكر ) وهو ما تنكره العقول من المساوى الناشئة من الغضب كالضرب والقتل والتطاول على الناس .

( والبغى ) وهو ظلم الناس والتمدى على حقوقهم .

وخلاصة ماسلف — إن الله يأمر بالعدل ، وهو أداء القدر الواجب من الخير ،  
وبالإحسان ، وهو الزيادة فى الطاعة والتعظيم لأمر الله والشفقة على خلقه ، ومن أشرف  
ذلك صلة الرحم .

وينهى عن التغالى فى تحصيل اللذات الشهوانية التى يأبأها الشرع والعقل ،  
وعن الإفراط فى اتباع دواعى الغضب بإيصال الشر إلى الناس وإيذائهم وتوجيه  
البلاء إليهم ، وعن التكبر على الناس والترفع عليهم وتصغير الخلد لهم .

( يعظكم لعلمكم تذكرون ) أى أمركم بثلاث منها كم عن ثلاث ، كى تتعظوا  
فتعملوا بما فيه رضا سبحانه وتعالى ، وما فيه صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم .  
وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال فى الآية الأولى — ذكر  
بعضها على سبيل التخصيص فقال :

( وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ) أى وأوفوا بيمينك الله إذا واثقتهموه ، وعقدته  
إذا عاقدتموه ، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه وواثقتهموه عليه ، ويدخل  
فى ذلك كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد ، ومن ثم قال ميمون  
ابن مهران : من عاهدته وفَّ بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله تعالى .  
( ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ) أى لا تخالفوا  
ما عاقدتم فيه الأيمان وشددتم فيه على أنفسكم ، فتخشوا فيه وتكذبوا وتنقضوه  
بعد إبرامه ، وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه راعيا يرمى الموفى منكم بالعهد  
والتناقض له بالجزاء عليه .

ثم وعد وأوعد فقال :

( إن الله يعلم ما تفعلون ) فى العهود التى تعاهدون الله الوفاء بها ، والأيمان التى  
تؤكدونها على أنفسكم ، أتبرون فيها أم تنقضونها ؟ وهو محص ذلك كله عليكم  
وسائلكم عنه وعماعلمتكم فيه ، فاحذروا الله أن تلقوه وقد خالقتكم أمره ونهيه ،  
فتستوجبوا منه ما لا قبل لكم به من أليم عقابه .

أخرج ابن جرير عن مزيّدة بن جابر أن الآية نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم يبايع على الإسلام ، فقال تعالى : ( وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ) فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ، وإن كان في المسلمين قلة وفي المشركين كثرة .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض مع ضرب المثل فقال :

( ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ) أي ولا تكونوا أيها القوم في نقضكم أيمانكم بعد توكيدها ، وإعطائكم ربكم العهود والمواثيق كمن تنقض غزلها بعد إبرامه وإحكامه ، وتنفضه بعد أن جعلته طاقات ، حماقة منها وجهلا .  
قال الشدّي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت غزلا نقضته بعد إبرامه .

والخلاصة — إنه تعالى شبه حال الناقض للعهد بحال من تنقض غزلها بعد فتلها وإبرامه ، تحذيرا للمخاطبين وتنبها إلى أن هذا ليس من فعل العقلاء ، وصاحبه في زمرة الخلق من النساء .

( تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ) أي تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاهدتم — خديعة وغرورا ليطمشوا إليكم ، وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد ، والنقلة إلى غيرهم من أجل أنهم أكثر منهم عدداً وعدداً وأعز نفرا ، بل عليكم بالوفاء بالعهود والحفاظة عليها في كل حال .  
قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز نفرا فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز نفرا فمها عن ذلك ، وقيل هو تحذير المؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم .

( إنما يباؤكم الله به ) أي إنما يعاملكم الله معاملة المحتبر بأمره إياكم بالوفاء بعهده

إذا عاهدتم ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى وبيعة رسوله ، أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم على حسب ظاهر الحال .

ثم أنذر وحذر من خالف الحق وركن إلى الباطل فقال :

(وليبيننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى وليبين لكم ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه لجازاة كل فريق منكم على عمله فى الدنيا ، الحسن منكم بإحسانه ، والمساءء بإساءته — ما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا من إقرار المؤمن بوحداية ربه ، ونبوة نبيه ، والوحى إلى أنبيائه ، والكافر بكذبه بذلك كله .

وبعد أن أبان أنه كلفهم الوفاء بالعهد ، وتحريم نقضه أتبعه ببيان أنه قادر على جمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الإيمان فقال :

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهذى من يشاء) أى ولو شاء الله لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة ولم يجعل لهم اختيارا فيما يفعلون ، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالتمل والنحل ، وفى حياتهم الروحية أشبه بالملانكة ، مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق ، وعدم الميل إلى الزيف والجور ، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين ، وعاملين بالخيار لا مفطورين وجعلهم متفاوتين فى الاستعداد وكسب العلم ، فلانسان اختيار أوتيه على حسب استعداده الأزلئ وهو مجبور فيه ، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار الذى يشاهد ، وتكون عاقبته الجنة أو النار .

(ولتسألن عما كنتم تعملون) أى ولتسألن يوم القيامة جميعا سؤال محاسبة ومجازاة ، لاسؤال استفهام واستفسار ، وقد تكرر ذكر هذا المعنى فى سور كثيرة .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُكُمْ بَعْدَ ثُبُوتِهَا  
وَتَذُوقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

### شرح المفردات

زلة القدم بعد ثبوتها : مثل يقال لمن وقع في محنة بعد نعمة ، وبلاء بعد عافية ، والحياة الطيبة : هي القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا ، لما في ذلك من الكد والعناء .

### المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه من نقض العهود والأيمان على الإطلاق — حذر في هذه الآية من نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها وهي نقض عهد رسول الله على الإيمان به ، واتباع شرائعه جرياً وراء خيرات الدنيا وزخارفها ، وأبان لهم أن كل ذلك زائل وما عند الله باق لا ينفد ، ثم هو بعدُ يجزيهم الجزاء الأوفى .

### الإيضاح

(ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم) أى ولا تجعلوا أيمانكم خديعة تغرون بها الناس ، والمراد بذلك نهى الخطابين بذلك الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها .

ذاك أنهم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وحلفوا على ذلك أوكد الأيمان ثم نقضوا ما فعلوا لقلة أهله وكثرة أهل الشرك ، فنهوا عن ذلك .

( فترى قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صدقتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ) أى إنكم بعملكم هذا تكونون قد وقعتم فى محظورات ثلاثة .  
(١) إنكم تظنون وتبعدون عن محبة الحق والهدى بعد أن رسخت أقدامكم فيها .

(٢) إنكم تكونون قدوة لسواكم وتستنون سنة لغيركم ، فيها صد عن سبيل الحق ، ويكون لكم بها سوء العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال والجلد عن الديار .

(٣) إنكم ستعاقبون فى الآخرة أشد العقاب جزاء ما اجترحتم من مخالفة الحق والإعراض عن أهله ، والدخول فى زمرة أهل الشقاء والضلال .  
ثم أكد هذا التحذير بقوله :

( ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ) أى ولا تأخذوا فى مقابلة نقض العهد عوضا يسيرا من الدنيا ، وقد كان هذا حال قوم ممن أسلموا بمكة ، زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا رسول الله عليه ، جزعا مما رأوا من غلبة قريش ، واستضعافهم للمؤمنين ، وإيذاً بهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم به من البذل والعطاء إن هم رجعوا إلى دينهم ، فنبههم الله بهذه الآية ونهاهم عن أن يستبدلوا الخير العميم والنعيم المقيم فى الآخرة بما وعدوهم به من عرض الدنيا وزينتها .

ثم بين سبحانه قلة ما أخذوا ، وعظيم ما تركوا بقوله :  
( إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ) أى إن ما خيأه الله لكم ، وادخره من جزييل الأجر والثواب هو خير لكم من ذلك العرض القليل فى الدنيا ، إن كنتم من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة التى تزن الأمور بميزان الفائدة وتقدر الفرق بين العوضين .

ثم بين وجه خيريته ورجاحة شأنه بقوله :  
( ما عندكم ينفد وما عند الله باق ) أى إن ما تتمتعون به من نعم الدنيا بل

الدنيا وما فيها تنفذ وتنقضى وإن طال الأمد وجل العدد ، وما في خزان الله باق لا نفاذ له ، فلما عنده فاعملوا ، وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا .

ثم رغب سبحانه المؤمنين في الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام فقال :

( ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ) أى ولنتيبن الذين صبروا على أذية المشركين وعلى مشاق الإسلام التي تتضمن الوفاء بالعهود والمواثيق ، الثواب العظيم الذي هم له أهل كفاء صبرهم وهو أحسن أعمالهم ، إذ كل التكليف محتاجة إليه وهو أس الأعمال الصالحة .

وفي الآية عدة جميلة باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعترتهم على حسب الطبيعة البشرية .

ثم رغبهم في المثابرة على أداء الطاعات وعمل الواجبات الدينية فقال :

( من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ) أى ومن عمل صالح الأعمال وأدى فرائض الله التي أوجبها عليه وهو مصدق بثوابه الذي وعد به أهل طاعته ، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم ، فلنجينه حياة طيبة ، تصحبها القناعة بما قسم الله ، والرضا بما قدره وقضاه ، إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتديره ، والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصاحبة ، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال ، فلا يقيم لها في نفسه وزناً ، فلا يعظم فرحه بوجودها ، ولا غمه بفقدانها .

ثم هو بعد ذلك يجزى في الآخرة أحسن الجزاء ، ويثاب أجمل الثواب ، جزاء ما قدم من عمل صالح ، وتحلى به من إيمان صادق .

أما من أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً فهو في عناء ونكد ، إذ يكون شديد الحرص والطمع في الحصول على لذات الدنيا ، فإن أصابته محنة أو بلاء استعظم أمره ، وعظمت أحزانه ، وكثر غمه وكدره ، وإذا فاتته شيء من خيراتها عبس وبسر ، وامتلأ قلبه أسى وحسرة ، لأنه يظن أن السعادة كل السعادة

فى الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها . فإذا هو لم ينل منه ما يريد فقد حرم كل ما يحلم به ، ويقدره من وافر السعادة وعظيم الخير ، والإنسان بطبعه جزوع هلوع ممنوع ( إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ ) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، واخلف على كل غائبة لى بخير » ، وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قد أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » .  
وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه » .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ وَالَّذِينَ هُم بِمُشْرِكُونَ (١٠٠)

### شرح المفردات

قرأت القرآن : أى أردت قراءته كما تقول إذا أكلت فقل باسم الله ، وإذا سافرت فتأهب ، والرجيم : المرحوم المبعد من رحمة الله ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، والتولى : الطاعة يقال توليته أى أطعته ، وتوليت عنه أى أعرضت .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يجزى المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذى به تخلص أعمالهم من وساوس الشيطان .

## الإيضاح

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى إذا شرعت فى قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيدك من وساوس الشيطان الرجيم ، لئلا يلبس عليك قراءتك ، ويمنحك من التدبر والتفكير كما قال « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » وإذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم مع عصمته منه فما بالك بسائر أمته ثم بين أن الناس فريقان فريق لانسلاطه عليهم وهم الذين وصفهم الله بقوله :

(إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أى إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون بقاء الله ويفوضون أمورهم إليه ، وبه يعوذون وإليه يلتجئون ، فلا يقبلون ما يوسوس به ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته . وعن سفیان الثورى أنه قال : ليس له سلطان على أن يحميهم على ذنب لا يغفر لهم - يريد أنهم أمروا بالاستعاذة منه ليحفظهم الله من وساوسه التى ربما جرهم إلى الوقوع فى صفائر الآثام متى تقع على سبيل الندرة أو الغفلة .

والفريق الثانى الذين عناهم بقوله :

(إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) أى إنما تسلطه بالغواية والضلالة على الذين يجعلونه نصيرا لهم فيحبونه ويطيعونه ويستجيبون دعوته ، والذين هم بسبب إغوائه يشركون بربهم .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعَلْنَا

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا  
 لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ  
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ  
 اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

### شرح المفردات

التبديل : رفع شيء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية : نسخها بآية أخرى ،  
 وروح القدس : جبريل عليه السلام ؛ سمي بذلك لأنه ينزل بالقدس أى بما يطهر  
 النفوس : من القرآن والحكمة والغيض الإلهى ، بالحق : أى بالحكمة المقتضية له ،  
 بشر : هو جبر الرومى غلام ابن الحضرمى كان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان النبى  
 صلى الله عليه وسلم يجلس إليه إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل يقال لحد وأخذ  
 إذا مال عن القصد ، ومنه سمي العادل عن الحق ملحدا ، لسان : أى كلام ؛ ويقال  
 رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان عن مرادها ، والأعجمى والأعجم : الذى  
 فى لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا  
 فى لسانه لكفة .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالاستعاذة من وسوسة الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن ،  
 أردف ذلك بذكر باب من أبواب فتنته ووسوسته بإلقاء الشبهات والشكوك لدى  
 منكبرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر منها شبهتين :

(١) إنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تأسخ شريعة ماضية فيعيرون

محمدًا بذلك .

(٢) إنهم قالوا إن ما جاء به إنما هو تعليم من البشر من بعض أهل الكتاب لامن الله ، فأبطل هذه الشبهة بأنه كلام عربي مبين وما نسبتم إليه تعليمه أعجبي ، فكيف به يعلمه الكلام العربي الفصيح الذي أعجز العرب قاطبة أن يأتوا بمثله .

## الإيضاح

(وإذا نزلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) أى وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى ، والله أعلم بالذى هو أصلح خلقة فيما يبديل من أحكامه - قال المشركون المكذبون لرسوله : إنما أنت متقول على الله تأمر بشيء ثم تنهى عنه ، وأكثرهم لا يعلمون مافى التبديل من حكم بالغة ، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عنادا واستكبارا .

وفى قوله ( والله أعلم بما ينزل ) توبيخ لهم وإيماء إلى أن التبديل لم يكن للهوى بل كان لحكمة اقتضته ودعت إليه من تغير الأحوال والأزمان ، ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بدواء بعينه ، ثم إذا عاد مرة أخرى نهاه عن ذلك الدواء وأمره بضده أو بما لا يقرب منه على حسب ما يرى من حال المريض .

وهكذا الشرائع إنما توضع مشاكلة للزمان والمكان والأحوال الملائمة لها ، وقد يطرأ ما يغيرها ويستدعى وضع تشريع آخر يكون أصلح للأحوال المفاجئة ، والمشاهدة تدل على صدق هذا ، فإننا نرى القوانين الوضعية تغير آنا بعد آنا إذا جد ما يستدعى ذلك ، وقد تقدم بسط هذا فى سورة البقرة .

ثم بين لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن رسوله صلى الله عليه وسلم قد افتراه فقال :

( قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى و بشرى للمسلمين ) أى قل لهم : قد جاء جبريل من عند ربى بما أتوه عليكم واقتضته الحكمة البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على

وحدانية خالق الكون وباهر قدرته وواسع علمه ، وحث على النظر في ملكوت السموات والأرض ، وتشريع يرقى بالأمم في أخلاقها وآدابها ومعارفها إلى مستوى لا تدانيها فيه أمة أخرى .

والخلاصة — إنه نافع كل النفع لهم في دينهم ودنياهم ، فإذا هم رأوا ذلك رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم ، كما أن فيه هداية لهم من الزيف والضلالات ، ففيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ويرد المظلوم عن ظلمه ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض ، وفيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار جزاء أعمالهم وكدهم ونصيبهم إرضاء لهم .  
وفي هذا إيماء إلى أن هؤلاء المشركين لهم من الصفات ضد هذا فهم متزلزلون ضالون لهم خزي ونكال في الدنيا والآخرة .

ثم حكى عنهم شبهة ثانية فقال :

( ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ) أى وإنا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلا : إنما يعلم محمدا هذا الذى يتلوه بشر من بنى آدم وليس بالوحى من عند الله .

فرد الله عليهم وكذبهم في قيلهم فقال :

( لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ) أى إن لسان الذى تملون إليه بأنه يعلم محمدا — أعجمى فهو عبد رومى فيما تزعمون ، والقرآن لسان عربى مبين ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه الشاملة من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَة من عقل .

وخلاصة هذا — إن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمى لا يفهمه هو ولا أتمم والقرآن كلام عربى تفهمونه بأدنى تأمل فكيف يكون هو ما تلقفه منه ؟ هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه ، فهو لم يلقف منه اللفظ ، لأن ذلك أعجمى وهذا عربى ، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى هو معجز من حيث اللفظ — إلى أن العلوم الكثيرة

التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بالدرس والتلقين من أخصائين مع الاختلاف إليهم مددا متطاولة ، فليس من اليسور ولا مما يجد العقل اطمئنانا إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سوقي سمع منه أخبارا بلغة أمجمية لعله لم يكن يعرف معناها .

وعلى نحو آخر كأنه قيل لهم : أتم أفصح الناس نبيانا ، وأقواهم حجة وبرهانا ، وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا ، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله ، فكيف تنسبونه إلى أمجمي الكن .

وفي التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساخجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز ، ونهاية السخف .

فدعهم يزعمون الصبح ليلا . أيعنى الناظرون عن الضياء

ثم توعدهم على ما قالوا بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال :

( إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ) أى إن الذين لا يصدقون بأن هذه الآيات من عند الله ، بل يقولون فيها ما يقولون ، فيقولون تارة إنها مفتريات ، ويقولون أخرى إنها من أساطير الأولين - لا يهديهم الله إلى معرفة الحق الذى ينتجهم من عذاب النار ، لما يعلم من سوء استعدادهم بما اجترخوا من السيئات ودنسوا به أنفسهم من ارتكاب الموبقات ، ولهم في الآخرة إذا وردوا إلى ربهم عذاب مؤلم موضح كفاء ما نصبوا له أنفسهم من العداء لرسوله والتكذيب لآيات الكتاب .

ثم لما نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الافتراء رد الله عليهم بقوله :

( إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ) أى إنما يتخترص الكذب ويقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وآياته التى نصبها فى الكون وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته ، لأنهم لا يرجون على الصدق ثوبا ، ولا يخشون على الكذب عقبا ، وهذه صفاتكم أيها المشركون لاصفات النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكما صريحا فقال :

(وأولئك هم الكاذبون) أى وأولئك الذين كفروا من رجال قريش القائلين لك أيها الرسول: إنما أنت مفترهم الكاذبون لا أنت . وهذا تصریح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض ، ليكون ميسم خزى وعار لهم .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ  
 بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ  
 وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ  
 وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى  
 قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ لَهُمْ  
 فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)

### شرح المفردات

أكره : أى على التلفظ بكلمة الكفر، والاطمئنان: سكون النفس بعد انزعاجها؛ والمراد الثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه، شرح بالكفر صدرا: أى اعتقده وطاب به نفسا ، استحبوا الحياة الدنيا : أى آثروها وقدموها ، لا جرم : أى حقا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولوا عليه الأقاويل فوصفوه بأنه مفتر وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد - ففى على ذلك بيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالإيمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل « أن المشركين أخذوا عمار ابن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله قال له ما وراءك؟ قال شر ما تركت ، نلتُ منك وذكرت آهتهم بخير ، قال كيف تجد قلبك؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال إن عادوا فعد فنزلت : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ، وروى «أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة في موضع عفتها وقالوا إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوا وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل يارسول الله إن عمارا كافر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إن عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : مالك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت .»

### الإيضاح

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) أى إن من كفر بالله بعد الإيمان والتبصر فعليه غضب من الله إلا إذا أكره على ذلك وقلبه مليء بالإيمان من الله والتصديق برسوله ، فلا تثرىب عليه كما فعل عمار بن ياسر .

(ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) أى ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر ، واعتقدوه طائعين مختارين ، لعظيم جرمهم وكبير إثمهم . ثم بين سبب هذا الغضب فقال :

(ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أى ذلك الغضب من الله ، والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الحياة الدنيا وزيتها على نعيم الآخرة . (وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) أى وأن الله لا يوفق من يجحد آياته .

ويصرّ على إنكارها ، لأنه قد فقد الاستعداد لسبل الخير بما زينت له نفسه، وسولت له من عظيم الجرم ، واختار من عظيم الإثم ، فأصبح قلبه مليئاً بما يشغله عن دواعى الإيمان بما يمليه عليه الشيطان .

( أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ) أى أولئك الذين اتصفوا بما تقدم ذكره — هم الذين طبع الله على قلوبهم فلا يؤمنون ولا يهتدون ، وأصم أسمعهم فلا يسمعون داعى الله إلى الهدى ، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر وتمعظ ، وأولئك هم الساهون عما أعد لأمثالهم من أهل الكفر ، وقد تقدم ذكر ( الطبع ) فى آى كثيرة .

( لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ) أى حقاً إنهم فى الآخرة هم الهالكون الذين غبنوا أنفسهم حظوظها ، وصرقوا أعمارهم فيما لا يفضى بهم إلا إلى العذاب المخلد والله در من قال :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب  
فما المرء فى هذه الحياة إلا كالتاجر ، يشتري بطاعة ربه سعادة الآخرة ، فإذا لم يفعل من ذلك شيئاً خسرت تجارتها ، وعاد ذلك عليه بالوبال والنكال فى جهنم وبئس القرار .

وقد حكم الله على هؤلاء الكافرين بستة أشياء :

- (١) إنهم استوجبوا غضب الله .
- (٢) إنهم استحقوا عقابه العظيم .
- (٣) إنهم استحبوا الحياة الدنيا .
- (٤) إن الله حرّمهم من الهداية للطريق القويم .
- (٥) إنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .
- (٦) إنه جعلهم سبحانه من الغافلين .

قال مجاهد : أول من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وسمية .

أما الرسول فجاه أبو طالب ، وأما أبو بكر فجاه قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أجلسوا في الشمس ، فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية ثم طعنها بحربة في ماسن العفة ، وقال الآخرون ما نالوا به منهم ، إلا بلالا فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول : أحدٌ أحدٌ حتى ملوا ، فكشفوه وجعلوا في عنقه جبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به ، حتى ملوه فتركوه .

وقال عمار : كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال فإن نفسه هانت عليه فتركوه ، وقال خباب : لقد أوقدوا لي نارا ما أظفأها إلا ودك (دهن) ظهري .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا  
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تِجَادِلُ عَنْ  
نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظَالَمُونَ (١١١)

### شرح المفردات

أصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من ردايته، ثم استعمال في الحنة والابتلاء يصيب الانسان ، تجادل: أى تدفع وتسمى في خلاصها ، والنفس الأولى الجثة والبدن ، والنفس الثانية عينها وذاتها ، وتوفى : تعطى .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه ملىء بالآيمان — أردف ذلك بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوا المشركين على الفتنة في الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ثم فروا وتركوا بلادهم وأهلهم ابتغاء رضوان الله وطلب

غفرانه ، وانتظموا في سلك المسلمين وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول  
توبتهم ودخولهم في زمرة الصالحين وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .  
أخرج ابن حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه ( وكان أبا جهميل من  
الرضاعة ) وأبا جندل بن سهيل وسامة بن هشام وعبد الله بن سامة الثقفي ، فنتهم  
المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا لیسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك  
هاجروا وجاهدوا فنزلت فيهم الآية .

## الإيضاح

( ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصابروا إن ربك من  
بعدها لغفور رحيم ) أى إن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا  
مساكنهم وعشائرهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام من بعد  
ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرا نبيهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد  
ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألسنتهم بالبراءة منهم وما يعبدون من دون الله وصابروا  
على جهادهم — إن ربك من بعد أفعالهم هذه لئو ستر على ما كان منهم من إعطاء  
المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضرون ، وللايمان  
معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

( يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ) أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم  
تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتحتاج عنها وتسعى في خلاصها بما أسلفت في الدنيا  
من عمل ، ولا يهمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب .

( وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ) وتعطى كل نفس جزاء ما عملت  
في الدنيا من طاعة أو معصية ، فيجزى الحسن بما قدم من إحسان ، والسيء بما  
أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسيء .

والخلاصة - إن كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كما قال :  
« لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

وجاء في بعض الآثار : « إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسي نفسي حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك » .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا  
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ  
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ  
الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)

### المعنى الجملي

بعد أن هدد الله الكافرين بالعذاب الشديد في الآخرة - أردف ذلك بالوعيد  
بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

### الإيضاح

( وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان  
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم  
رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ) أى بين الله صفة القرية كان  
هلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبي ، يأتيها الرزق الكثير من سائر البلدان  
فكفروا بنعم الله فعمهم الجوع والخوف ، وذاقوا مرارتها بعد سعة العيش والطمأنينة  
وقد جاءهم رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه ، فكذبوه فيما أخبرهم به من

وجوب الشكر على النعمة ، فأخذهم العذاب واستأصل شاقهم لالتباسهم بالظلم وهو الكفر وتكذيب الرسول .

وفي هذا إيماء إلى تماديهم في الكفر والعناد ، وإلى أن ترتيب العذاب على تكذيب الرسول جاء على سنة الله في أنه لا يعذب أمة إلا إذا أنذرها ، وبعث إليها رسولا يعظها ويرشدها كما يدل على ذلك قوله « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وهكذا حال أهل مكة ، فإنهم كانوا في حرم آمن يتخطف الناس من حولهم ، ولا يمر بهم طيف من الخوف ولا يزعج قلوبهم مزعج ، وكانت تجبي إليهم ثمرات كل شيء ، وقد جاءهم رسول من أنفسهم فأنذروهم وحذروهم فكفروا بأنهم الله وكذبوا رسوله فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وأذاقهم لباس الجوع والخوف بدعاء رسوله إذ قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وغيرهم وقوافلهم ، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب ، وقد جعل الله الجوع والخوف اللذين خالط أذاها أجسامهم - لباسا لهم ، لأن أثرها وضررها قد أحاط بهم من كل جانب فأشبهها اللباس الذي يغطي الجسم ويحيط به ، وحمل إصابتهم بهما إذافه دلالة على شدة تأثيرهما الشديد الذي حدث فيهم كما يكون ذلك حين ذوق شيء مرّ بشع كرهه ، إذ يجد الذائق تقززًا واشمئزازًا .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُتُوبَكُمْ لِيَأْتِيَهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنِكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمِمَّا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَنفَثُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

### شرح المفردات

يقولون : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ؛ لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما محيط بحقيقتهما يصفهما للناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف ، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ ، إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هي حقيقته ومنبعه الذي يعرف منه ، وعليه قول أبي العلاء المعري :

سرى برق المعرفة بعد وهن قبات بزامة يصف الكلالا

أى إن سرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتنفثوا : أى لتكون العاقبة ذلك ، والجهالة هنا : الطيش وعدم التدبر في العواقب .

### المعنى الجملي

بعد أن بين سبحانه حال من كفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله وأنه قد حل بهم العذاب من جوع وخوف بسبب ظلمهم لأنفسهم وصددهم عن سبيل الله - فنفى على

ذلك بأمر المؤمنين بأكلهم من الحلال الطيب وشكرهم لنعمة الله عليهم وطاعتهم للرسول فيما به أمر وعنه نهى كيلا يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم بيان ما حرمه من المأكول ، وأن التحليل والتحرير لا يكونان إلا بتصريح من الدين لا بالهوى والتشهي ، لأن ذلك افتراء على الله ، ومن يفتر عليه لا يفلح ، وأن ما حرم على اليهود قد ذكره فيما نزل عليه من قبل في سورة الأنعام ، وأن من يعمل سوء لعدم تدبره في العواقب كغلبة الشهوة عليه ثم يتوب من بعد ذلك ويصلح أعماله ، فإن الله غفور لزلزلاته ، رحيم به فيثيبه على طاعته .

### الإيضاح

( فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون )  
 أى فكلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التي أحلها لكم وذروا الخبائث وهي الميتة والدم ، واشكروا الله على ما أنعم به عليكم بتحليله ما أحل لكم ، وبسائر نعمه المتظاهرة عليكم ، إن كنتم تعبدونه فتطيعونه فيما يأمركم به وتتنبهون عما ينهاكم عنه ، والمراد بذلك الحث على اتباع أوامره والمداومة عليها .

وبعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات بين لهم ما حرم عليهم فقال :

( إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ) أى إنما حرم عليكم ربكم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح للأنصاب فسمى عليه بغير اسمه تعالى ، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته .

والخلاصة — إن ما سمي عليه غير الله عند الذبح سواء كان صنفاً أو وثناً أو روحاً خبيثاً من جن أو روحاً طيباً من إنس كالنبي والولي حياً أو ميتاً ، فأكله حرام لما جاء في الحديث « ماعون من ذبح لغير الله » سواء سمي الله عند ذبحه أو لم يسم ، لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى غيره تعالى ، فمن ذبح للسيد البدوي أو لإبراهيم الدسوقي أو للسيدة زينب لا يجوز أكل هذا الذبيح .

ثم ذكر الحال التي يسوغ فيها تناول شيء من هذه المحرمات فقال :

( فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ) أى فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات لحاجة حلت به ، وضرورة دعته إلى أخذ شيء منها ، غير باغ على مضطر آخر ولا متعمد قدر الضرورة وسد الرمق - فالله لا يؤاخذ على ذلك وهو الذى يستمر ما يصدر منهم من الهفوات ، وهو الرحيم بهم أن يعاقبهم على مثل ذلك ، أما ما حرموه غير ذلك من البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما تقدم فى سورة الأنعام فهو محض افتراء على الله ، وقد تقدم مثل هذه الآية فى سور البقرة والمائدة والأنعام وفيها حصر المحرمات فى هذه الأربع فحسب .

ثم أكد حصر المحرمات فى هذه الأربع ونهى عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال :

( ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ) أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بالرأى والهوى ، فلا تقولوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، ولا تحلوا الميتة والدم والخنزير الخ .

وخلاصة ذلك - لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له دون استناد إلى دليل ، وكأن ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخص عالم بحقيقته ومحيط بكنهه يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح .

( لتفتروا على الله الكذب ) أى لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذبا من غير أن يكون ذلك منه ، فالله لم يحرم من ذلك ما تحرمون ولا أحل كثيرا مما تحللون .

وإجمال ذلك - لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمة عن الله ورسوله خلا لا وحراما فتكونوا كاذبين على الله ، لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه تعالى .

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى

يوى هذا - وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما في كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم ، والله در القائل :

كبهمة عمياء فاد زمامها أعمى على عوج الطريق الخائر

أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت ، أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت .

ثم أوعد الله المغترين وهددهم أشد التهديد فقال :

( إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ) أى إن الذين يتخرون الكذب على الله فى أمورهم صغيرها وكبيرها لا يفوزون بخير فى المطالب التى لأجلها كذبوا على ربهم ، إذ هم متى عرفوا بالكذب مجهم الناس وانصرفوا عنهم وعاشوا أدلة بينهم ممقوتين ويكونون مضرب الأمثال فى الهوان والصغار - إلى ما يصيبهم من الخزي والوبال يوم القيامة .

ثم بين أن ما يحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئا مذكورا إذا قيس بالمضار التى تنجم منه فقال :

( متاع قليل ولهم عذاب أليم ) أى إن المنافع التى قد تحصل لهم على ذلك فى الدنيا لا يعتد بها فى نظر العقلاء إذا ووزن بينها وبين المضار التى فى الآخرة ، فما متاع الدنيا إلا ظل زائل ثم يفتى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم بما اجتروا من السيئات ، ودنسوا به أنفسهم من أضرار الإثم والفجور والكذب على بارئهم الذى خلقهم وصورهم فأحسن صورهم . ونحو الآية قوله : « **نَمَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ** » .

وبعد أن بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ما خص به اليهود من المحرمات فقال :

( وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ) أى وحرمنا من قبلك

أيها الرسول على اليهود ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» .

ثم بين السبب في ذلك التحريم عليهم فقال :

( وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) أى وما ظلمناهم بتحريم ذلك

عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم وتجاوزهم حدوده التى حدها لهم وانتهاك حرمانه ، فعوقبوا بهذا التحريم كما قال فى آية أخرى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » الآية .

وفى هذا إيماء إلى أن ذلك التحريم إنما كان للظلم والبعى عقوبة وتشديدا ، وبه يعلم الفرق فى التحريم بينهم وبين غيرهم ، فإنه لهم عقوبة ، ولنا للمضرة بحسب . ثم بين أن الافتراء على الله وانتهاك حرمانه لا يمنع من التوبة التى يتقبلها الله منهم ويغفر لهم زلاتهم رحمة منه وفضلا فقال :

( ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ) أى إن ربك للذين افترؤا عليه وأشركوا به سواة وزكبوأ ما لا يلىق من المعاصى بسبب الجهالة التى تحملهم على انتهاك حرمان الدين كالقتل للغيرة أو للعصبية كما جاء فى الخبر « اللهم إني أعوذ بك من أن أجهل أو يجهل علي » . وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهل أحـد علينا فـنجهل فوق جهل الجاهلينا

إنه لغفور رحيم بهم إذا هم تابوا وندموا على ما فرط منهم وأصلحوا أعمالهم ففعلوا ما يحب الله ورسوله .

وفى قوله : جهالة ، إيماء إلى أن من يأتى الذنوب قلما يفكر فى العاقبة لغلابة الشهوة عليه أو لجهالة الشباب والطلش .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)  
 شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ  
 فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ  
 أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ  
 السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ  
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ  
 ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا عِثْلَ  
 مَا عُوِقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ  
 وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ  
 (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

### شرح المفردات

الأمة : الجماعة الكثيرة، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات  
 ما لو تفرق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهرون الرشيد مادحا :  
 وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

والقانت : المطيع لله القائم بأمره ، والحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين  
 الحق ، واجتباؤه : اختاره واصطفاه ، والحسنة : هي محبة أهل الأديان جميعا له إجابة  
 لدعوته لربه « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » وجعل السبت لليهود : فرض  
 تعظيمه والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد ، والحكمة : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل

الموضح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة : الدلائل الظنية المتقنة للعامة ، والجدل : الحوار والمناظرة لإقناع المعاند ، والعقاب في أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل في مطلق العقاب ، والضيق (بفتح الضاد وكسرهما) الغم وانقباض الصدر.

### المعنى الجملى

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين في إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفي طعنهم في نبوة الأنبياء والرسل بنحو قولهم: لو أرسل الله رسلا لأرسل ملائكة. وفي تحليلهم أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ في رد هذه المعتقدات . ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين الذى كان المشركون يفتخرون به ، ويقولون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملا لهم على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، ثم بأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باتباعه ، ثم يجعل الأسس التى يبنى عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم بأمره باللين فى العقاب إن أراد أو بترك العقاب ، وهو أفضل للصابرين ، ثم بأمره بجمل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكرون به ، فإله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العقاب للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

### الإيضاح

(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرًا لأنعمه اجتنابا . وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) مدح الله عبده ورسوله وخطيبه إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات . من صفات الكمال :

(١) إنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده غلبه

السلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر في النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ليطمئن قلبه بالإسلام .

(٢) . إنه كان قانتاً أى مطيعاً لله فأما بأمره .

(٣) إنه كان حنيفاً أى مائلاً عن الباطل ، متبعاً للحق لا يفارقه ولا يحيد عنده .

(٤) إنه ما كان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين .

فى الصغر والكبر ، فهو الذى قال للملك فى عصره « رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ » وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : « لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » وكسر الأصنام حتى ألقوه لأجلها فى النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

وعلى الجملة فقد كان غارقاً فى بحار التوحيد مستغرقاً فى حب الإله المعبود ،

وفى ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزيز ابن الله ، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ما هم عليه ؛ ونحو الآية قوله : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(٥) إنه كان شاكراً لأنعم الله عليه كما قال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى » أى قام

بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره فى المثل السابق .

(٦) إنه اجتباه ربه واختاره للنبوة كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ

مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » .

(٧) إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له مع إرشاد

الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

(٨) إن الله حببه إلى جميع الخلق ، لجميع أهل الأديان مسلمهم ونصاراهم

ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لا نفر لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله

« وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » .

(٩) إنه في الآخرة في زمرة الصالحين وهو معهم في الدرجات العلى من الجنة ،  
إجابة لدعوته قال « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَخْفِنِي بِالصَّالِحِينَ » .

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التي بلغت الغاية في علو المرتبة .  
أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال : « يَا أَيُّهَا مُحَمَّدُ اتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ » .

( ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ) أى ثم  
أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفة السليمة البريئة من  
عبادة الأوثان والأنداد التي يعبدوها قومك ، كما تبرا إبراهيم من مثلها من قبل ،  
فأنت متبع له وسائر على قدمه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يحلون ويحرمون  
من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله في سورة الأنعام : « قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .  
ذِيقًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وخلاصة ذلك — إنه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم بنفى الشرك وإثبات  
التوحيد ، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلي ، ليظهر الدليل النقلى الدليل العقلي .

وقوله ( وما كان من المشركين ) تنكير لزيادة التوكيد وتقرير لثباته عليه  
السلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال :  
( إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين

اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن  
يتفقوا فيه على كلمة واحدة بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه . كما أن وبال

التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لا محالة .

وإن ربك ليفضل بين الفريقين في الخصومة بالاختلاف ، ويجازى كل فريق  
بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه — إنذار للمشركين وتهديد لهم بما فى مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال ، كما ذكر مثل القرية فيما سلف ، إلى أن فى هذا حثا على إجابة الدعوة التى تضمنها سابق الكلام وأمروا بها فى للاحقه ؛ ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال :

( ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن )  
 أى ادع أيها الرسول من أرسلت إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها خلقتهم بوحى الله الذى يوحىه إليك ، وبالعبور والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله كالذى عدده فى هذه السورة . وخاصهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها بأن تصفح عما نالوا به عرضك من أذى ، وترفق بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » الآية ، وقال أمرا موسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

ثم توعد سبحانه ووعد فقال :

( إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ) أى إن ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين فى السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومحجة الحق ، وهو مجازيهم جميعا حين ورودهم إليه على حسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك — انك فى الدعوة والمناظرة الطريق المثلى وهى الدعوة بالتي هى أحسن ، وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لا يعوى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبه من الخير ، فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة وهو كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر رسوله بالدعوة وبين طريقها وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعي إما بقتله أو بضره أو بشتته ، كما أن الداعي يدعو طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر الله المحتمين برعاية العدل والإنصاف في العقاب وترك الزيادة فيه فقال :

(وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، وإن صبرتم لهو خير للصابرين) أى وإن عاقبتهم أيها المؤمنون من ظالمكم فلنكم في العقاب إحدى طريقتين : (١) أن تعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة .

(٢) أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب ، وتصفحوا عنه ، وتحسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكفوا أمركم إليه ، والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .  
والخلاصة — إنكم إن رغبتم في القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فإن الزيادة ظلم ، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم بذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بناصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن نذب إليه غيره تعريضا ، لأنه أولى الناس بفراغ الأمور ، لزيادة علمه بشؤونه تعالى فقال :

(واصبر وما صبرك إلا بالله) أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى فى الله وعن إعراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيئته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .  
وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وشهوين لمشايق الصبر عليه وتشريف له جعلنا لا يزيد عليه .  
(ولا تحزن عليهم) أى ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك وينكرون ما جئتهم به .

(ولا تلك في ضيق مما يمكرون) أي ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر احتيالا وخديعة لمن أراد الإيمان بك ، وصدا عن سبيل الله .

وقضاري ذلك — إنه نهي نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضيق صدره مما يلقي من أذى المشركين على تبليغهم وحى الله وتنزيله كما قال : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيَتُنذِرَ بِهِ » وقال « فَمَا لَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

فالله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، ووئيدك ومظهرك عليهم ، فهما حاولوا إيصال الأذى بك ، فإن الله مبعده عنك ، ومحبط ماصنعوا وهم لا يشعرون .  
(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أي إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفا من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه ، والقيام بحقوقه ، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفي ترك ما نهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهرون : « لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ » وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصدیق وهما في الغار فيما حكى الله عنه : « لَا تَحْزَنَ إِنْ اللَّهُ مَعَنَا » .

وقضاري ذلك — إن الله تعالى ولی الذين يتقوا إليه وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لغوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائض الله وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكاله ، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل ، وأن يوفقنا للثقة في دينه ، ويفتح لنا خزائن أسرارِهِ ، بحرمة كتابه ، ويكون شريعته التي أنزلها على رسوله النبي الأمي ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

## بمجل ما حوته السورة الكريمة من الآداب والأحكام

- (١) استعجال المشركين للساعة .
- (٢) ذكر الأدلة على التوحيد بخلق العالم العلوى والسفلى وخلق الإنسان .
- (٣) الامتنان على عباده بخلق الأنعام وما فيها من المنافع من أكل وحمل أثقال إلى البلاد البعيدة .
- (٤) النعي على المشركين في عبادة الأصنام والأوثان .
- (٥) إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثالات وبما آتاهم من العذاب من حيث لا يشعرون .
- (٦) احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل بأن ما هم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم ، فلا فائدة في إرسالهم ، وقد رد الله عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار لخلق الهداية والإيمان .
- (٧) إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت ، ومن الناس من استجاب لدعوتهم ومنهم من حقت عليه الضلالة .
- (٨) إنكار المشركين للبعث والنشور وحلقهم على ذلك ، وتكذيب الله لهم فيما يقولون .
- (٩) إنكارهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رجل لأمك ، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعا كانوا رجالا لاملائكة .
- (١٠) إنذار المشركين بعذاب الحسف .
- (١١) جعلهم الملائكة بنات مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى .
- (١٢) رحمة الله بعباده وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم ، وأنه لو أخذهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .
- (١٣) ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرث والدم ، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب والعسل من النحل .

- (١٤) تفاضل الناس في الأعمار والأرزاق .
- (١٥) ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله .
- (١٦) الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر وتسخير الطير في جو السماء وجعل البيوت سكنا ، وجعله لنا سرايل تقي الحر وسرايل تقي بأس العدو .
- (١٧) جعل الأنبياء شهداء على أممهم وعدم الإذن للكافرين في الكلام وعدم قبول معذرتهم .
- (١٨) الأمر بالعدل والإحسان وصلوة الأرحام والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، والأمر بالوفاء بالعهود والوعود وضرب الأمثال لذلك .
- (١٩) الأمر بالاستعاذة من الشيطان وبيان أن سلطانه على المشركين .
- (٢٠) تكذيبهم للرسول إذا جاءهم بحكم لم يكن في شريعة من قبله من الأنبياء وادعاؤهم بأن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد روى ورد الله عليهم ذلك .
- (٢١) إنه لاضير على من كفر بالله وقلبه مطمئن بالإيمان دون من شرح بالكفر صدرا .
- (٢٢) دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة وجزاء كل نفس بما عملت .
- (٢٣) ذكر ما حرمه الله من اللطاعم والنهي عن تقوّلهم على الله بغير علم .
- (٢٤) ذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم .
- (٢٥) مدح إبراهيم عليه السلام ووصفه بصفات لم يوصف بها نبى غيره ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه وسلوك طريقته في العقاب والصبر على الأذى .
- وقد انتهى تصنيف هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة عصر يوم الأربعاء الثلاثين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من هجرة سيد ولد عدنان .